المتوكل طه

سَرديّات الجُنون

2008

سـرديات الجنـون

نصـوص

د. المتوكـل طـه - فلسـطين

الفهرس

نص الدخول 5
المقدمة 41
السرديات : حَبْشين 49
أبو شيبان 53
صلاة الجماعة 57
عمّي كابور 61
البغلة في الإبريق 65
الحاجة زينب 69
الكلب أبيض 75
لوحة الانفجار 79
الحاجّة خدّوج 83
دائرة العار 87
إسمنت الآلهة 93
قماط القمح 97
جهاز الجدّة 103
البوابة 107
باقة البسطار 113
ابتسامة المُلصق 117
أولاد اللّكع 121
شارع أبو رباب 125
الخالق الناطق 129
امرأة النجوم 135
أينما ولّيتَ وَجْهَك 139
قبيلة الجنون 143
وأدركت شهرزاد الصباح 149
أظن أن.. 155

نَصُّ الدخول

تجاوزنا حفرة اليأس، وقفزنا فوق رمال البرق التي تسحب الظلال إلى الأعماق . كان عذاباً حلواً ، والخوف ضروري للوصول إلى الجنون.

هو رجل بلغ السبعين، وتجرّأ على السنوات! وحتى يظلّ فتيّاً ، فقد علّق صورته ، وهو شاب ، على جدار غرفته في المخيم ، وأمرها أن تكبر وتهرم نيابةً عنه ، وظل شاباً ، يرى ويتبع الصقر في يومٍ غائم ، ويدلّ الصياد عليه. له وجه يشبه البحر بعد العاصفة، ويبدو أن ساحراً بارَكَهُ ، لذا، فهو لا يموت! لا يمكن اللحاق به، ولو بمئة قمر صناعي، أو ألف كلب صيد.

استقبلنا على شرفة بيته الشاميّ، كان وجهه صافياً كالخزف الصينيّ، ويمسك بقلم يشبه شكل البندقية، كأن مهمتّه الدموية لم تنته بعد! رغم صمت الطبول.

رجلٌ يتشوّق إلى البعيد، يعرف صوت الخداع، وينأى عن الذين رغبوا بالرذيلة أو انغمسوا فيها، ولمّا سألته عن أصدقائه القدماء، قال: كانوا دوائي، لكنهم تحوّلوا إلى سُمّ زعاف، لهذا، سأطلق ذئبي

بين نعاجهم، أولاد اللـّخناء!

رجلٌ يبدو أغنيةً من لحمٍ ودم ، يحبّ النساء الولودات مثل فلاّح عريق ، ويشفق عليهن ، فيبدو في عيونهن غامضاً كالناحية السوداء .

تراه وحيداً في ميدان الخيل الفارغ ، كأن الفرسان قد ماتوا ! ولا ترى في عينيه نظرة الهارب ، كأن الإصرار شعاع بؤبؤيْه ! يحبّ أن يتبأر في العيون ليكتشف جوهر الناظر أو المتحدث أو المتشاوف .

ويبدو أن حصانه الحقيقي ليس كالأحصنة التي نعرفها ، بل إنه ذلك الترقب وملاحقة كل ما هبّ وجاء إلى أحشاء الناس ، وعمل على تحطيمهم وإذلالهم ، لهذا تراه يأخذ حصانه يميناً ويساراً ، كأنه مروحة يروّضها ويهفّ بها ، إنها طريقته الملكية ليحول دون وصول هواء أو دخان إلى جهاته .

إنه بحصانه الرشيق يردّ كل الموجات الصفراء الخانقة، ليظل بعافية الحضور ، ويتغلّب على فساد المناخ أو المكان ، وينتصر على مخاوفه وزلاّته ، وما تكاثف من

حوله من غوائل وآفات .

ينام قليلاً ويحلم كثيراً ، ويحمل المواخر على لسانه ، كأن فمه بحر عوليس الناري بمخلوقاته الباطشة ، وعندما تجلس إليه ترى حلماً في حلم، وتسمع السباع وهي تعوي في قلبه، ويده الممدودة باستقامة على يمينه، ثابتة كأنها سيف البحر.

هل أنتَ خالد الذي مات أبوه وهو في بطن أُمّه ؟ نعم، هو أنت ! يا أيها اليتيم السبعينيّ النبيل ، أخشى أنّك صرت كالنمور المُسنّة، التي تصبح كاسرةً، عندما تدرك نهايتها ؟!

ضحك حتى اهتزت الحديقة، وقال: لكلامك ترتيب نمطيّ سعيد! لا يا بنيّ، فأنا الجوّال الأبديّ، أنا الحرف الصوفيّ الحاوي، وأنا المغنّي الذي وقفت له الشرفات، ولوّحت له الأيادي والزهور. بدأت سيرتي منذ دم أبي على صخرة الجبل حتى اليوم، ولن تنتهي إلى أن أمسح دمعته، في قبره، حتى يستريح وينام.

لٰكنك وحدك! ولا تتقن إلاّ أن تلعن تاريخك ، وتحارب وحدك كل انهيار !

ضحك الخالد ، فأدركتُ سذاجتي، وكأنه قال: كل شيء معي؛ الطبيعةُ والناموسُ وَوَهْمُ الزمن والتاريخُ والغناء والأحمالُ...

وصاح: معي الجنون! ألا يكفي؟

قلت: هو الزاد الكافي والنـــــسغ الوافي..

وأردف : أنا لا ألعن تاريخي ، ولا أقدّسه أيضاً ، لٰكننا بحاجة ماسّة وحيوية ، إلى أن نكشف جرحنا للريح والهواء ، وأن ننقّيه من صديده والتهاباته ، وأن نعصر الجمر على حدوده ليبرأ من جديد !

يا أخي ! لا بُدّ من مراجعة المسيرة ، لنعرف اللوطيّ من النبيّ ، والبائع من الرافع ، والسارق من الوامق ، حتى لا تضيع غرناطة ، مرة أخرى ، في القدس ! وحتى لا تموت مريم المخيم ، أو تجهض فاطمة الحاجز ، وحتى لا يفتشوا جسد أمك الميتة بهراواتهم في الطرقات ، أو يظل إخوتك كالكلاب اللاهثة الجوعى أمام مكاتبهم الموبوءة ، وتحت قوى اللاوعي المُظلمة !

عُدْ ، إذاً ، وانتظروني هناك ،

فإن مَنْ سرقوا القافلة سيتّهمون أصحابها الحقيقيين

بالقرصنة والجنون وقطع الطريق .

رجعنا، والمجنون بجسده الممتلئ يغطّي كل الجبال والشوارع والوهاد. كأن صورته غطّت كل شيء، فلا نرى إلا شيئاً منه؛ شَعره الطويل الممشوط الأبيض، فَمَه المزموم كالبرعم الخرافيّ، وعينيه الدخانيتين.. كأنه ضباب كثيف ملوّن، تجسّد، حتى بدا كائناً أكبر من هذه الأرض الممتدة!

وصلنا، فسألني صديقي أبو ضحى: كيف وجدته؟

قلت: مجنون رائع، يعرف حدود لعبة الزمان، فأعدّ لها البيادق المناسبة. لم يسمع بالهزيمة، ولا يقرّ بالنكبة، وبما أنتجت من لجوء وبطون مبقورة ومذابح. كأن ما وقع كان شيئاً يسيراً يمكن إصلاحه بقليلٍ من الجنون العاقل، والغناء المتّسق البسيط، وبشيءٍ من الأناقة الروحيّة وشفافية الكفّ والساقين!

فقال: وهل كان ذلك صعباً؟

قلتُ: يبدو أن الصعوبة تكمن في قلّة المجانين!

قال: إذاً، لا حاجة لي بالعقل!

قلت: العقل هو أول الجنون، وآخر معاقل الهوس، وقنطرة الوصول إلى الحكمة والحقائق.

إحتفظ به بجنون بالغ. ولا تعلّق صورتك الفتيّة على جدار بيتك. واسمع أيها الوارث القمين لهذا الجنون:

خسرنا الاثنتين؛ الثورة والدولة. فالغابة ليست مجموع أشجارها المُمْرعة، أو القميئة فحسب. فثمة ثمرٌ عسليٌّ، وجداول حرّة وظلال، وثمة عيدان يابسة وأفاعٍ وأخاديد.

وتبقى الأرضُ أو المساحةُ التي تحمل جذوعَ الأحداث، صابرةً صامتةً، ترى فوقها غصون التاريخ تتكوّن وتتلوّن، ولا ينجو من حقيقته سوى ما مات في صدور المشنوقين أو المسجونين، أو الذين دهمتهم الجلطات فانفلجوا، وظلّوا على صمتهم المدوّي. أما المرتفعون الذين يزيدون، فثمة طبقة رمادية على شفاههم لها ريح مقززة مغثة وكريهة.

وينبغي على التاريخ ألا يتكرر، لتظل عجائبهُ نافذةً بائنةً مدهشة! أما إذا تكرر فثمة كسل وضعف وشُبهة، وثمة فقدان الذهول، وستصبح العجائبُ ظواهر دون هالات، وستفقد مفاجآتها، ما يجعلها عرضةً للاستهتار والنسيان.

وتبقى ذكرى مَنْ اجترح التاريخ وصنعه، أولئك الذين تغلّبوا على الليل، ثم رحلوا، تاركين أرواحهم للنهر الجاري، الذي سيشرب منه الصغار. لقد رحلوا، لكننا نستطيع أن نستعير حياتهم، لنعيد إلى التاريخ، رغم تكراره، فذاذة العجيبة، واختراق العبقرية، لعلنا، ونحن ننام بجانب ندوبنا نحس بأننا أكثر جمالاً مما نرى في المرايا والوجوه.

أولئك الذين ما كانت قصّتنا موجودة لولا قصصهم.

عندما أتحدث عنهم أشعر أن صوتي مليءٌ بالتآلف والاطمئنان، فمن ألَمِهم يجيء هذا الحب والوداعة والثقة بالغد، رغم كل ما يخنقنا من لغط ووقاحة واجتراء.

وعندما أتحدث عنهم، أكاد أقول إنني القوة التامّة والمُعافاة، التي تهبط من السماء، لتجعل الأرض رائعة، تلك الكرة المليئة بالوحول والدم. وأحس بأنني أمتلك الكوكب بين أصابعي فأضيئه بدم هؤلاء، أو بدمعهم الناشف المجنون.

وقد قالوا: الذين نحميهم يدلّون على شخصيتنا، فماذا نريد أعلى وأنبل من هذه البوصلة الشهيدة، التي نتشرف بإشارتها إلينا، أو إشارتنا إليها، لجعل الذين أصابهم النسيان المُبكّر أو الإحباط أو الكآبة، يتذكرون، ويثوبون إلى رشدهم.

وباختصار، ثمة حكايات، تكاد لا يصدقها عقل، سَرَدَها على مسامعي شيخي الجليل، وهو في غمرة مناجياته ونداءاته وتوسّلاته للأعالي الباهرة، بأضواء الكشف وأنوار الوصول والرضا.

كان بعد كل عودة وهدوء وبرود، يرجع إلى مجلسه، وعلى وجهه آثار العرق اللامع، وبقايا صخب، ما فتئ يبرق ويتجلى ويتراءى.. وكنت قبالته أرقب ما يفعل، لأحفظ ما يقول، وأسعى لفتح نوافذ لحمي للروح.

كـي تشـقّ طينـهـا، وتصل مع تلك الـتـوقـيـعـات والاهـتـزازات وشـدّة الـتـركـيـز والإجـهـاد إلـى هـنـاك! كـان يـقـول لـي: إحـفـظ!

ثم يسـتـأنـف سـارداً بـعـض الـسـطـور، ثـم يـصـمـت، ويـعـود إلـى مـجـاهـداتـه، وأظـلّ أنـا مـشـغـولاً بما قـالـه هـذا الـسـيّـد الجـلـيـل. فـأذهـب، فـي صـبـاح تـلـك الـلـيـلـة، إلـى ورقـي فـأعـيـد كـتـابـة الأسـطـر الـتـي سـردهـا، كـمـا هـي، دون تـبـديـل أو زيـادة أو نـقـصـان، ثـم أعـمـل فـكـري، مـحـاولاً تـفـسـيـر مـا سـرد، حـتـى كـانـت هـذه الـسـرديـات.

***　　　　*　　　　***

أعـتـذر، إن مـا ذكـرتـه كـان مـحـاولـة منّـي لـتـقـديم هـذه الـسـرديـات بـشـيء مـن الإبـهـار. والحـقـيـقـة أن مـا جـاء فـي هـذه الـسـرديـات، لا أصـل لـه فـي الـواقـع، ومـا هـو إلاّ هَـذَر وخـيـال، ولـعـب بـالـكـلام، وتـألـيـف لـفـجـائـع، وتـركـيـب لحـسـرات، بـل أكـاد أقـول، لا أرض أصـلاً تـتـسـع لمـثـل هـذا الجـنـون، ولـم يـقـع حـدث يـسـتـأهـل كـل هـذا الانـفـلات لـلـعـقـل والـرشـد والـتـوازن. حـتـى أن فـلـسـطـين، هـذه الـبـقـعـة الجـغـرافـيـة، مـا زالـت أرضـاً عـربـيـة لـم يـطـأهـا أحـد مـن شـذّاذ الآفـاق، ومـا زالـت حـيـفـا عـربـيـة،

وكذلك عكا ويافا وعسقلان، وكل ما قيل من كلام عن النكبة والنكسة وبغلة أبي العبد، محض افتراء وكذب، وربما أراد أهل هذه البلاد، أن يجعلوا من تلك البغلة الكسولة الهرمة، أشبه ما تكون بحصان الإسكندر الأبيض، الذي اعتقد القدماء أنّ روحاً تسكنه، فكان كبساط الريح، يحمل راكبه إلى جهات الأرض، متى شاء! وربما تماهيت مع أهل هذه الأرض، وأردتُ أن أكشف عن صفحات صغيرة مهملة، من مأساتها العميقة المُدّعاة، وضياعها المتخّيل، لتصير مثل الأندلس التي ضاعت ذات مساء، ودليلي على ذلك أن «أبا شيبان» مات ميتة طبيعية، وأشهد على ذلك، فقد كان صديق والدي. وأن «الحاجة خدّوج» تسكن في الحارة الشرقية وليس في المخيم، بل أين المخيمات؟؟ ما هذا الخيال؟؟ وإن «أبا سلمة» هو نصراني يفتح دكاناً لبيع التحف والأيقونات في القدس، ويتحدث سبع لغات، ولا يعرف من العبرية البائدة حرفاً واحداً، ولا حتى من السريانية التي تشبهها! أمّا «حبشين»، فهذا أحد أشقياء يافا الذين كانوا يغلقون الملاهي في وجهه، لاعتداءاته المتكررة على الراقصات، ومات مقتولاً تحت مسلّة الساعة، وسط ساحة المدينة، وقبره مهمل في إحدى المقابر هناك.

إنني أخاف من شدّة السعادة والراحة والرغدِ التي أعيشها وأرفل في عســـــلها، وربما أردتُ أن أُطعّم هذه النيرفانا المعيشة، بشيء من الحزن والشجن، حتى يكون للسعادة مذاق أكثر عمقاً ولذّة. كما أن فلسطين مملكة، و لديها جيش قوي، ومليكنا - أدامه الله- عربي يمتد نسبه إلى آل البيت - رضوان الله عليهم- ويسكن في الرملة، وقصره، الذي يستقبل فيه الوفود الأجنبية الصديقة، التي تأتي لتطلب معونتنا ومساعداتنا، موجود في حيّ المنتفيوري، غربي مدينة بيت المقدس، التي هي عاصمتنا الروحية، منذ إقامة المملكة قبل بضعة قرون. آهٍ منّا نحن الشعراء والكُتّاب، نحب دائماً أن نذرف الدمع، ونصبّ الكآبة، في حمأة الفرح وجلوة الأمان والرخاء! والأغرب من ذلك - أسأل نفسي- كيف استطعتُ، رغم عيشة الفردوس الآمنة، أن أتخيّل كل هذا العناء والجنون والغرابة؟! الصحيح إنني ذو خيال واسع!

* * *

أنا آسف، آســـف بالفعل! فهذه السرديّات حقيقية، ولا مجال للقفز عن التاريخ إلى هذه الدرجة.

ففلسطين تقع تحت الاحتلال، من نهرها إلى بحرها، ومن رأسها الثلجي إلى أخمصها الرملية، واليهود يصولون ويجولون فيها، وحالنا عدم وخوف وضياع وجنون، فما هذه الفلسفة المدّعاة، وهذا الكذب الفنتازي؟ وبالفعل لقد وقعت هذه القصص، ولكننا قد تجاوزنا ذلك التاريخ المُدمّى المؤلم بسنوات طويلة، وهي مرحلة أصبحت وراءنا، ولا داعي لنبش القبور وفتح الجراح... ألم ننَل استقلالنا، وننَل حقنا كاملاً؟ لقد أقمنا دولتنا، والحمدُ لله، وزالت المستوطنات وراحت الحواجز، ولم يتبق غير الذكرى المؤلمة التي يجب أن نعمل على استبدالها، بأغنيات مشتركة مع جيراننا اليهود، نهتف بها للسلام والعيش المشترك وقبول الآخر! وها أنذا أذهب إلى بيت حماي في القدس، ويرى أبنائي بيت جدّهم، ويطلّون من فوق سطحه على مصاطب الاقصى وقبة الصخرة.. وقد ودّعنا أيام السجن والإقامة الإجبارية والوقوف ساعات أمام حواجز التفتيش، التي طالما ولدت النساء وأجهضن، وماتت الأجنة والوالدات عندها، وها هي آثار السور العنصري تنبت مكان أساساته أشجارُ الزيتون والتين والرّمان -لاحظ إنها أشجار الجنّة التي تحدث عنها القرآن الكريم- وإذا واصلت الحديث عن أيام الاحتلال،

فهذا يعني أنني ضد السلام العادل الشامل، وضد الكومبرومايز التاريخي، أو الحلّ الوسط الذي توصل إليه المعتدلون الفلسطينيون الوطنيون! لحفظ ما تبقى من حقوقنا، وها هم اللاجئون الذين تم تعويضهم، سعداء في مواطنهم الجديدة، ويتحدثون يوميا ً بالهواتف النقّالة مع ذويهم في الضفة والقطاع وبعض أحياء القدس. وماذا يريدون أكثر؟ بل ماذا أريد أنا أكثر من ذلك؟

لقد استتبّ الأمن واستقرّ الحال، والناس في سِعَة وخير وسلام! وإذا ما نشرتُ هذه القصص فسيغضب مني بعض المثقفين الذين كانوا ماركسيين ويساريين، لأنني أسعى إلى تأبيد الصراع، مع قوم جاؤوا ضيوفاً إلى وطننا، ويتنفســــون معنا ذات الهواء، وأعطونا ما استطاعوا، وأنا ما زلت بعيداً عن الواقعية المطلوبة، بل ما زلت حانقاً على الذين سجنوني وسجنوا أبي، وكانوا سبباً في جنون أولئك الذين أسرد قصصهم، وأعرفهم كما أعرف خطوط يدي. بل إنني -على رأيهم- حاقد جداً، لأنني لم أنس أولئك الذين تابوا ورجعوا إلى الخط الوطني، رغم ما اقترفوه من أعمال جاسوسية ضد شعبهم، بدءاً من الذي كان السبب

في قتله وذلّه وتجويعه، ومرورا ً بتسليم مقدساته وترابه الطهور، وانتهاءً بالركوب في سيارات جيش الاحتلال ليدهموا المحلات التجارية لفرض الضرائب الظالمة عليهم. كم أنا متخلّف ورجعي وحاقد! أمَا على الشعوب أن تنسى!؟ ها هي أوروبا التي طحنتها الحروب تتصالح وتتّحد، وها هم الهنود الحُمر-أو ما تبقى منهم- يتسامحون مع الأبيض، ولا ضرورة لما كتبه تزفيتان تودوروف أو منير العكش، فهذا رجوع لا طائل منه لتاريخ البيض الأسود، وكذلك الأفارقة واللاتينيون سامحوا وتسامحوا، فلماذا لا تنسى أيها الفلسطيني الحاقد المريض! إخْص عليك ما زلت تعيش في الماضي، وتحكي عن الماضي، وتسرد قصص الماضي.. أفّ ٍ لقد أقرفتنا يا أخي. ها أنتَ في دولتك المستقلة، فاخرس، ولا تنكأ الجراح، إنها مرحلة مضت وانتهت!

*　　　*　　　*

مش معقول، بالفعل أنا آسف، فهذه القصص وقعت، ولكن ليس كما تُروى هنا، لقد تم تحريفها، والذهاب بها من العادية والصدفة، إلى التهويل والقداسة.

فالشخوص المذكورون، كانوا بالفعل يدّبون على هذه الأرض، لٰكن أهلهم وأصدقاءهم، عملوا على أسْطَرَة قصصهم، وترميزهم وترفيعهم، من أناسٍ شديدي العادية، إلى نماذج ساطعة يُشار إليها بالبنان. فمثلاً، كان «حبشين» تاجراً كبيراً، ولما مات أراد أبناؤه أن يكتسبوا شرفاً، فأعطوا للحكواتي ما تيسّر، حتى يجعل من غُصّته التي أودت به، حكايةً تجعله شهيداً. و«الحاجة خدوج» هي شقيقة رئيس البلدية الذي أراد أن يُغطّي على الأخبار السيئة والشائعات السوداء، بتلك الحكاية القدسيّة، وكأنه من نسل أرباب الحظوة الربانيّة، الذين يتمتعون بقدرات خارقة، تجعلهم من أصحاب الكرامات. أما «أبو شيبان»، فقد أخذ أبناؤه كل ماله وطردوه من البيت، لأن أمهم كرهت زوجها العاجز المريض، وهي ما زالت في عزّ شبابها، وعلى ما يبدو، أراد الابناء أن يبرّروا ضياع أبيهم وانفلات عقاله، بما ردّدوه مع أعوانهم المنافقين من أسباب. بمعنى آخر، ثمة وجه آخر لهذه السرديات، لٰكنني، مِلْتُ، كما يبدو، للرواية الأكثر دراميةً وغرابة، لا بأس!

* * *

لا ! انتظروا، فكل ما قيل سابقاً ليس له مكان في الواقع أو الحقيقة، والقصّة من أولها هي: أن كل القصص التي ستطالعنا قد وقعت كما هي بالفعل، ولكن في أرض أخرى، ولدى شعب آخر، وكل ما فعلته أنا، هو أنني أدّعيت أننا أصحابها، وقمت باستلابها كاملة ً، وعملتُ على تكييفها، كما يفعل الخيّاط الشاطر، لتصبح على مقاسنا، وكان الأمر يسيرا ً، حيث استبدلتُ «جبل سيدنا علي» بجبل قاف، والقدس بمدينة راء، وأبا سلمة بالمنسيور جيم، و«خدّوج» بالمادونا زوز، و«حبشين» بالأدون خوم، والاحتلال البغيض بقطعان دال ميم.. وحاولت أن أصنع فضاء يليق بحراك هؤلاء الأبطال، مع قليل من الإكسسوار والحروف والألوان.. حتى باتت هذه السرديات على ما هي عليه!

واسمحوا لي أن أكشف سرّاً صغيراً، وهو أننا نحن الذين نحتل شعبا ً آخر، ونخضعه بالنار والحديد، ونلقيه في عتمات اللزوجة والفزع والثبور، ونقطع اشجاره، ونخلعها من شروشها، ونلقيها بعيداً عن عرشها الأبدي، ونهدم بيوته الجميلة الطالعة من المكان، كأنها شجرة الميلاد، لنجعلها أكواماً

كابية مُرهقة.. وبصراحة: لقد قلبتُ المعادلة مئة وثمانين درجة، وما الأبطال هنا إلاّ ما رأينا من شهداء وضحايا في الطرف الآخر، أما القتلة المجرمون فهم نحن، أيها السادة، وما علينا إلاّ أن نعترف.. لنتطّهر قليلاً!

وبصراحة أشدّ، أنا لم أعد قادراً على احتمال أن أكون جزءاً من مجتمع يحتلّ مجتمعاً آخر، ويصادر كل أسباب حياته منذ مئة عام! ما هذا؟ أليس في قلوبنا رحمة؟ وماذا نقول لأطفالنا الآمنين عندما يرون على شاشات التلفاز أطفال الطرف الآخر المنخّلين برصاصنا المجنون الحاقد، وبقنابلنا العمياء والمسيلة للعار؟ وماذا أقول لزوجتي عندما ترى امرأة من الطرف الآخر، تجلس على ركام بيتها، وتضع يدها على صحن خدّها وتجوح! آه، لقد قمنا باحتلال دور الضحية ونحن المجرمون، وجعلنا الضحية جلاداً يَذبحنا، ألم يفعل ذلك الكثيرون من قبلنا؟ فلماذا لا نفعلها؟ وربما قمت بعملية السرقة والاستلاب هذه لأن القوي يستطيع أن يسوّق روايته وادعاءاته دون اعتراض، حتى أحرم أولئك الإرهابيين الذين جعلوا احتلالنا لهم لا يطاق، ولم يستوعبوا أننا ذهبنا إليهم كمحتلين، لنعلّمهم

لنعلّمهم المدنية والحضارة، ونخلّصهم من بدائيتهم الخشنة وسلوكهم الغليظ البربري. ثم لدينا ذريعتنا الأخلاقية المرتكزة إلى وعد الغيم لنا؛ بأنّ ما تظلله غيمتنا هو لنا، وهذه الأرض تقع تحت غيمتنا العالية، ولكننا بالغنا على ما يبدو، ونحتاج إلى قليل من إعادة النظر بما حدث، ولهذا فإنني صرت مؤيداً لأصدقائي المؤرخين الجدد، الذين يجعلون روايتنا أكثر معقولية وقبولاً، ويصدّقها العالم المعجب بي!

* * *

انتظروا. ما قرأتموه تخريف وتغرير وكذب، فهذه السرديات أو القصص، أو ما شئتم تسميتها، ما هي إلاّ مخطوط وجده الحفّارون في صندوق مليء بالأوراق، وباعتباري كاتباً، وأقول كلاماً أكبر من آذان المستمعين، فقد دفعوا بها إليّ، وقالوا: ربما تَجد شيئاً مفيداً في هذه الأوراق. يا لحظّي لقد وجدت مخطوطي القرمزي، فليذهب «أنطونيو غالا» إلى الجحيم، ليس وحده الذي يجد اللُقى، ليفك رموز الحكاية، بل أنا أيضاً! لكنني خفت أن يصيبني ما أصاب «بندورا» عندما فتحت الصندوق الذي يخبىء «مهد الحياة» فما إن وصل عينيها ضوء الحياة

حتى بكت دموعاً سوداء أشبه بالأسيد الكاوي.

*　　　*　　　*

لقد نسيت، آسف! لقد وجد هذه الأوراق عمّي الحارث الذي كان يفترع الأرض، ذات ربيع، فرأى أفعى أكبر من مئذنة البلدة، تعترض فلاحاً يركب حماره، فابتلعه والحمار، ولم يتبق إلا خُرج البهيمة، فحمله عمّي، فوجدنا فيه هذه الأوراق!
لا.. لا.. تذكرتُ! هذه الأوراق هي ما وجدناه في جيب قمباز أبي -رحمه الله- بعد أن دفناه بثلاثة أيام، حيث أراد أخوتي أن يحصوا ما ترك الوالد من مال وعقار، ليسارعوا إلى تقسيمه عليهم، ولم يكن من نصيبي سوى هذه الأوراق، حيث رماها إخوتي لي، وقالوا لي: أنت كاتب، ويكفيك ميراث أبيك الحبريّ.

*　　　*　　　*

لا يا جماعة، هذه الأوراق كتبها طالب كان في الصفّ الذي أعلّمه، وكان يدفع لي بها لأنظر فيها، وأعطي رأيي بمضمونها وبمستواها الفني، وعندما هممت أن

أعيدها إليه مع ملاحظاتي القليلة، فوجئتُ أنّ صاحبها قد استشهد في تظاهرة وقعت البارحة أمام المدرسة، فقلتُ في نفسي: لا ضير أن أنشرها باسمي، فالهدف واحد، وليكن نشر هذه السرديات، نوراً وبخوراً على روحه الطاهرة. وها أنذا أعترف: هذه القصص ليست لي، إنها لتلميذي الشهيد، رحمه اللّٰه!

* * *

يا إلٰهي، كم أنا واسع الحيلة، فما ذكرته وَهْمٌ وتلفيق وكذب، وكل ما في الأمر أن هذه السرديات ما هي إلاّ منامات أو رؤى أو أحلام! صحيح أن الرؤيا تختلف عن الأحلام، فالأولى بشرى من اللّٰه تعالى أو تحذير، والثانية أضغاث من الشيطان. كما أن الرؤيا صفةٌ من بضع وسبعين من صفات الأنبياء، يخصّ بها اللّٰه مَنْ يشاء من خلقه! والأحلام مبذولة لكل مخلوق بشري، يضجّ فيه اللاوعي بالممنوعات والمشتهيات. ولٰكن انتبهوا، لأن الرؤيا قد تتفسّر بعد أربعين عاماً، كما حدث مع سيدنا يوسف عليه السلام، كما أن تفسير الرؤيا يعتمد على الرائي وعلى الزمن الذين تقع فيه الرؤيا، وكذلك على مضمونها!

بمعنى إذا رأيتَ في المنام أنّك تؤذّن فهذا يعني أنك ستؤدي فريضة الحج إن كنتَ مؤمناً، أو أنك ستسرق إذا كنتَ فاسقاً (ورد ذكر الأذان في القرآن الكريم للنداء على الحجيج، كما ورد للآذان على العير التي سرقت صواع الملك) وبمعنى: إذا رأيت ناراً في المنام، فهذا خير إن كنت في فصل الشتاء، وهذا شرّ إن كنت في فصل الصيف. أما مضمون الرؤيا فيعتمد على مكوّناتها ورموزها، أي إن صادفت رجلاً اسمه بشير فهذه بشرى، أو صادفت شخصاً اسمه نذير فهذا إنذار وشرّ مستطير قادم، وهكذا دواليك! وعليه فإن هذه القصص التي سَتُرى أمامكم، ما هي إلاّ منامات، وما عليكم إلاّ أن تجتهدوا في تعبيرها أو تفسيرها، وبإمكانكم أن تعودوا إلى كتاب «ابن سيرين»، أو إلى كتاب «تفسير الأحلام» لفرويد، أو إلى تفسير الأحلام دوت نت، على صفحات الانترنت!

*　　　*　　　*

الصحيح، إنني أبالغ وأراوغ، وألفّ وأدور، وببساطة، وبعيداً عن هذا المزاح الثقيل، والتلوّي العليل، أدعوكم لأن ترموا خلف ظهوركم كل ما سمعتم

آنفاً، وأن تأخذوا هذه الرواية الصحيحة، وهي أن هذه القصص قد أخذتها عن الزجّال الفلسطيني ذائع الصيت أبي العتابا الاشبيلي، وهو من شمال الضفّة الغربية، يحضر كل سامر فيُشعله بأزجاله وحدائه ومواويله، فيمسك بالقمر وينعفه كالطحين على سطوح البيوت، ويمسك بالنجوم فيرصّعها على فساتين البنات الواقفات على الشرفات، ويحمل دفقات الينابيع ويرنخها بالمناديل الملوّحة على الناصية، وهي تنتظر الزفّة الهائجة بالعرق والفتوة والرغبات.. هذا أبو العتابا، قوّال البلاد الذي عوّدنا، ومع نهاية كل سامر، ومع أواخر الليل أن يسرح بنا بما ينغّمه من شروقي، كأنه يتعبّد، ويغشى جوارحنا بقصائد يسرد خلالها قصّة شائقة ماتعة تمزّع القلوب وتفرم الأكباد، فما كان منّي، إلاّ أن استقرّت في وجداني تلك الشروقيات الذائبات، وليس لي فضل في هذه القصص، سوى أنني أعدتُ كتابتها، ووضعتها كما سترونها في هذا الكتاب. ويبدو أن أبا العتابا الإشبيلي، وبسبب دورانه على كل البلاد والنجوع والمدن والأنحاء، ليحيي أفراحها وأعراسها، قد سمع ما وصل إليه من حكايات، فنفذت إلى قلبه وانفعل بها، وأعاد إنتاجها بتلك التنغيمات المذهلة، لتصل إلى أضلاعي،

فتندلع ببرقها ناراً تضيء.. ولا رماد! أعترف بهذا الآن، حتى أحفظ للإشبيلي حقّه وقدرته في شلع قلوبنا، وسوسحتنا في البلدة، عندما كان يتقافز بعياقة محبّبة، بِروْزته السُكريّة وحذائه الأبيض، وقشاطه العريض، وبطوله الرقيق الفارع، وبصوته الذي يعيد تشكيل الغابة لتصبح كما يطيب له، جنّةً للعشاق والطيور والفراش، وما بلغ من النجوم والكواكب. وأذكر هذا الآن، لأن الإشبيلي الذي قُتل في المعتقل، وكان أمضى سبع سنوات في الأقبية، قد أمر مدير المعتقل بخنقه، لأن غناءه يشقّق الجدران ويفصّد أبواب الحديد ويفلّها، ويسمح للشمس والهواء بالوصول إلى عتمات الزنازين والأرضيّات الضيّقة. وبالمناسبة، فإن أهالي بلدة الإشبيلي يؤكدون أن نغماً ناعماً حارقاً أقرب إلى صوت الناي البعيد يعمّ الأرجاء كل ليلة، ويعبق في الطرقات والتلال، ويغطّي كالضباب كل الوديان والسفوح والبيوت، ويتساحب كأنه غيم يتناسخ بين الشجر والظلال.

* * *

سامحوني يا جماعة! فنحن معشر الكُتّاب والشعراء

والأدباء كاذبون ببراءة وبراعة، وكذبنا أبيض، ولهذا، ربما، وصَفَنا الله تعالى بأننا نقول ما لا نفعل، فإذا اعترف أحدنا بمعصية لا يُقام عليه الحَدّ، لأنه كذلك! ونحن فقهاء الخيال الذين نصنع من سبحات الخيال عوالم في منتهى الجدّة أو الغرابة أو السوريالية، ونعيد تشكيل الدنيا، ونصنع ما يُبهج، أو يُميت كَمَداً.. فلا تأخذوا عنّا، ولا تصدّقونا، ودليلي على ذلك أن كل الروايات التي سبقت لم تحظ بحرف صِدْقٍ واحد، ولم تك أكثر من أفكار خرقاء مُدّعاة، وافتعال وتجميع! أما الحقيقة اليتيمة التي أخّرتها، لأنها الوحيدة الصحيحة التي لا يرقى إليها الشك، فهي، أن هذه السرديات قد وقعت بالفعل، وبالأسماء الحقيقية المذكورة، وفي المواقع نفسها، لكنني أنقلها عن سائق حافلة البلدة لكم. وليس لي فضل فيها، سوى النقل. وسائق الحافلة وهو «أبوالشُكْر» الأرمل ، من بلدتنا ، يعمل سائقاً منذ الأزل، فيركب معه نفرٌ كثير، ويسمع كل اللغط والمشاجرات والأحاديث والنقاشات والقصص والحكايات. والغريب أن أبا الشُكر حسّاس إلى حدّ كبير، فعندما تعتلي حافلَته النسوةُ الذاهبات فاردةً إلى بيت العروس في القرية المجاورة، يبتهج معهن ويراقص أقدامه، بل ويترك المقـــــود

ويصفق معهن، ويحفظ كل أغانيهن، وعندما يركب معه الرجال الذاهبون لأداء واجب العزاء، في قرية أخرى، يبكي معهم، وتنهمر دموعه، كأن الميت أخوه أو ابن عمه.. كم هو مشاركٌ هذا أبو الشُكر! وكم يتجاوب مع الناس وأحوالهم! لهذا ترى عينيه حمراوين من البكاء على ميت لا يعرفه، أو ترى وجهه منتشياً من غناء يمتد إلى المغارب في رحلة قطعها مع العرائس المجلوّات
العابقات بزهر الليمون والقرنفل. آه يا أبا الشُكْر! كم كنت تقصّ عليّ ما اختلف من القصص، كأنك ناقد يعجم الحكايات ويغربلها، فينتقي ما نـَتـَأ منها أو تمايز واختلف. والضاحك الباكي أبو الشُكْر هذا قد ذبل جسمه وخذله قلبه، وَفـَتَّ في لحمه وشحمه السُكّرُ والضغط، لكن ذاكرته ما فتئت لامعة مشرقة، تحفظ كل قطرة دم سفحها الجزّار في سلسلة جرائمه المريعة، ويعرف كل قطرة عرق مارت على جبين كل مَنْ وقعت عليه مظـْلمة الأزمان، هنا في فلسطين. ووفاءً لأبي الشُكْر ولكتابه المحفوظ في صدره، أعيد سرد هذه الحكايات، لعل أحداً يلحق بباقي الجيل الذي شارف على الهلاك أو الرحيل، لنجمع الرواية الصعبة المستحيلة، لنردّ بها على غوائل الكذب والتزوير.

*　　　　*　　　　*

وعندما حاولتُ أن أؤلف صيغة جديدة أُقدّم بها هذه القصص، قالت لي الصديقة د.عبير: امسك عليك قلمك يا صديقي ، فبعض الأشياء يجب ألاّ يتم ذكرها. فاستجبتُ لندائها، ورحتُ أرتّب النصوص تباعاً.

*　　　　*　　　　*

فَـهْرَستُ النصوص خلف بعضها، ورحتُ أرتّبها، وفجأة تذكرتُ أن هذه النصوص هي نفسها تلك الأوراق التي أخذتها من الطبيب. يا إلهي، كم صرت أنسى أو أغفل أو أخطئ، أو أتلخبط، أو لا أدري ماذا! فمنذ فترة وأنا أحاول الحسم في أمر مرجعية هذه السرديات، وكنتُ كل مرّة أعتقد ظنّاً أحسبه أكيداً ، ولكن هذه المرّة انتهى كل شيء، لقد اتّضح الهلال وبانت الرؤية، وها أنذا أُقدّم لهذه القصص وأردّها إلى أصلها الحقيقي وجذرها الأوّل. والمسألة من أولها بدأت عندما اتّصل بي صديقي الطبيب عبد السلام، وطلب منّي أن أزوره في عيادته النفسية. خشيتُ لأول وهلة، وتخيّلتُ أنه لاحظ عليّ ما يستوجب معه علاجي، أو لعلي أصبتُ بمرض نفسي

بات لزاماً معه أن أخضع على سرير الطبيب! ولم أنم تلك الليلة، التي شهدت تفكيراً عميقاً استغرقني، رحت خلاله أمرّر شريط أيامي أمامي، لأتبيّن نتوءاتي وأطواري الغريبة، وضاق نَفَسي، وأجهدني العَرَقُ، ولم يغمض لي جفن حتى الهزيع الأخير.

دلفتُ إلى العيادة، قبل الوقت الذي اتفقنا عليه، فوجدته جالساً، وأمامه كومة أوراق يتصفّحها ويقلّبها، ويقلّب معها شفتيه وحاجبيه! فظننتُ أنه استحضر بعض قصائدي، وعمل على استخراج مكامن جنوني من وراء سطورها، فارتبكتُ، وتلعثمتُ، ولم أدرِ هل ألقيت عليه التحية، أم جلستُ، دون أن أنبس ببنت شفه!

فجأة، وقف، ولملم بيديه الأوراق، وألقاها دفعةً واحدةً أمامي، وقال: اقرأ! فقلتُ: ما أنا بقارىء، فضحك، وضحكنا، واعتبر إجابتي تماهياً خفيف الظلّ مع مناسبة قوله وطلبه.

قلتُ: ما هذا؟ فأشار بيديه بما يعني أن أنظر إليها...

كانت الخطوط مقروءة، والكلمات واضحة المعنى، ولم أرَ غير نصوصٍ هي أقرب إلى القصص القصيرة، أو المقالات، أو كل ذلك معاً، وربما يكون كاتبها أحد أقرباء صديقي الطبيب أو مراجعيه، ويريدني أن أعطي رأيي فيها! وسألته: ما هذا؟

فقال: هذه يا صاحبي بعض ما سجّلته لمرضاي، الذين يتمدّدون على الشيزلونج هذا، أي السرير المُعدّ للجلسات الإكلينيكية أو العيادية، فرأيتُ أن بعض المرضى، وكلّنا مرضى، يتخيّلون أنهم ذاتهم هي هذه الشخصيات التي تراها في هذه السرديات، ورأيت أن فيها من الإبداع والقصّ ما يلفت نظركم، أنتم معشر الأدباء والشعراء. فسألته مستغرباً: هل المريض هذا الذي تكتب اسمه أعلى الصفحة، هو الذي تخيل نفسه «حبشين»، في هذه القصة؟
فأجاب: نعم، وأردف: كلها هكذا.. إذن، هذه السرديات هي ما قاله المرضى النفسيون في عيادة الطبيب! يا سبحان الله! إن كثيراً من المرضى أكثر إبداعاً وقدرة وتميزاً من كثيرٍ من مدّعي الادب والخلق والكتابة، أو أن الادباء والكتاب هم مرضى نفسيون، لكنهم لم يفردوا أجسادهم على الأسرّة، ذوات الملاءات البيضاء.

ضحكتُ في سرّي، واقترحت على نفسي أن نستبدل اتحاد الكتاب بعيادة نفسية، ويكون رئيسنا أو أميننا العام الطبيب عبد السلام. وبدل أن تجتمع الهيئات الادارية والأمانات العامة والجمعيات الأدبية، كل ستة أشهر، في بلد عربي، تحت مظلّة الاتحاد العام للادباء والكتاب العرب، أقترح أن يجتمعوا، ويستمعوا جيداً لآخر محاضرات علم نفس، وللأطباء المختصّين، بعلاج المُدّعين والكذّابين والمنافقين، والذين يعتقدون أن محمود درويش لا ينام حتى يقرأ قصائدهم المعتوهة، وأن نجيب محفوظ مات عندما لم يقرأ روايتهم الخرقاء! رغم أن هذا الكاتب أو ذاك، لا يعرف الفرق بين المفعول لأجله والمفعول المطلق، ولا يعرف الفرق بين كلمتي خلط ومزج، بل وأراهن إنْ كان يعرف شروط الوضوء، أو مَنْ هو الجاحظ أو ابن خلدون.. ويكون ذاك « الكاتب» قد طبع عدة أوراق، أسماها كتاباً ، وراح ينفخ حاله، ويمرّ مقطّباً متجاهلاً، وكأنه «كشاجم» رحم الله.

*　　　*　　　*

أيّ زمن هذا الذي نعيشه؟ وما هؤلاء الأدباء الذين لم يلحقوا بالمرضى بعد!؟

حملتُ الأوراق، وفردتها على مكتبي، وقرأتها عشرات المرّات، وكل ما فعلته هو أنني أصلحتُ بعض الكلمات من حيث لغتها أو إعرابها، وأخّرت بعض الكلمات وقدّمت أُخرى.. وسمحتُ لحالي أن أكتب مقدمة مكثفة قصيرة، تختصر ما جاء في تلك السرديات، وهذا، ربما، ما يفسر وجود مقدمة أقرب للذهنية واللغة العالية، قبل الولوج إلى تلك النصوص البسيطة السلسة المنداحة بعفويتها وفطريتها.

*　　　*　　　*

ودفعتُ الأوراق إلى السكرتيرة لتنضيدها، وراجعتها غير مرّة، وأرسلت بها مصفوفة، بحرف واضح، إلى صديقي الرنتاوي، البليغ في النحو والصرف وأحوال لغة الضاد، فاكتشف أخطاء كثيرة فاتتني، وأرسلتها بعد ذلك إلى مكتب للمونتاج، وأنهيت كل ما يلزمها فنيّاً، لإرسالها إلى المطبعة، فلم أجد جهةً تتبنّى طباعة هذه الهلوسات وهذا الجنون، فلم أجد بُدّاً من وجود قارىء يشاركني استكمال هذه النصوص، فلم أجد أفضل من أصدقائي الذين نسهر معاً، كل مساء تقريباً، في مقهى «إيليت» برام الله، فقرأت

على مسامعهم قصةً إثر أخرى، بواقع قصة أو اثنتين كل ليلة، فراحوا يتناقصون ويتغيّبون، فاعتقدت أنهم مشغولون، لكن الحقيقة هي أنهم لم يحتملوا سماع هذه القصص أو النصوص، بل إنهم ملّوا من صداقتي الثقيلة، التي تبهظ أسماعهم، بقصص المجانين المختلّين، وصرتُ أذهب إلى «إيليت» فلا أجد أحداً، وأصبحتُ بلا أصدقاء! وما علينا، إنْ كتبنا حرفاً ألاّ نُلقيه أو نتلوه أمام أحدٍ مهما اشتدت قرابته، فالقراءة خيانة، وكذلك ادّعاء الكتابة، أما الصداقة فهي أمرّ مبالغ فيه، كما أنها نتاج شروط الطرفين، وليس شرط طرف واحد، حتى ولو كان مبدعاً، أو إنْ كان يعتقد هكذا عن نفسه، كما أعتقد أنا!

* * *

(نصرخُ من المكائد التي ينسجها الأقارب والأصدقاء، مع أنها تمنحنا وقتاً مؤلماً وجميلاً لنقصّها على الغرباء)...

* * *

يا لفجيعتي وظنّي السيء! لقد اعتقدتُ أن أصدقائي هجروني بسبب سماجة القصص، وعدم قدرتهم على احتمالها، وللمفاجأة، فقد اتصل بي الدكتور عبد السلام، وأبلغني أن أصدقائي واحداً تلو الآخر تناسلوا، سرّاً، إلى عيادته، لخوفهم على أنفسهم من الجنون!

فزعتُ من خبر صديقي الطبيب! فإن كان أصدقائي قد استشعروا الجنون لمجرد سماعهم القصص، فكيف هو الأمر معي؟ أكيد، أنا غير طبيعي، وبدوري، أرى لزاماً عليّ أن أراجع الطبيب النفسي، ولكن لن أذهب إلى الدكتور عبد السلام، فهو صديقي ويعرف عني كل شيء، ولا داعي للحرج. ذهبتُ إلى طبيب آخر، عيادته في البلدة القديمة، في بناية تقع بين الكنيسة والجامع، واسمه د. ابراهيم، وبمجرد أن رآني عرفني، وغبطني على شجاعتي لزيارته، لاعتقاده أن الأدباء والفنانين، عموماً، عليهم مراجعة العيادات النفسية بين الفينة والأخرى، حتى يظلّوا متوازنين.

سجّل بعض المعلومات العامة عنّي على نموذج مطبوع، وأشار لي أن أستلقي على سرير ناعم،

ويبدو أن ثمة موسيقى أليفة وخفيفة، تكاد تصل من مكان بعيد، وجلس الطبيب على مكتبه، وفتح آلة التسجيل، وأمامه ورق وقلم، وعقد كفيه أمامه، وهزّ رأسه مطمئِناً، وقال بصوت وديع: قُل ما تشاء، واعتبرني غير موجود، قُل ما تريد، وابدأ من حيث تريد.. وبدأت:أشعر أني مرتبك قليلاً، والمسائل تتزاحم في عقلي ولا أدري كيف أبدأ، أو من أين، ولكن، لا بأس.. سأبدأ.. وُلدت في الحقل، ذات ربيع شمسي، ولمّا قامت أمّي لتجفّف مشيمتها، كان عمري قرابة السبعين عاماً، وراحت ترضعني لباء الفرس ونسغ الغابات وعرق الينابيع وعسل الصخور، ومَسَحَتْ جسدي بزيتِ طفاحٍ لاذع، ولفّتني بموجة شالها المزركش، بالزهور وعروق الدوالي والأرجوان، فأقاموا لميلادي ليالي الفرح وموائد الزاد، فشربتُ الأغاني من فم النايات ورعاة النغم المذبوح بالرمش والعطش، وكان المكان جميلاً فاتناً إلى حدّ الخوف، وأصبحتُ كهلاً، وما إن دخلت المدرسة حتى اجتاحوا البلدة، وكان أبي الشاب يحمل جناده وبندقيته، ليحمي الزرع والقمر والضفائر، فسجنوه وقتلوه، وشرّدوا الحارة، وصار دمُ الحوامل ياقوتاً يرهج بحمرته الساخنة في الطرقات.. وأضحيتُ شاباً،

وبحثتُ عن ذاتي بضع سنين، حتى وجدتها في الخيام والأحلام والحنين الجارف، وبدأ النشيد!

كان اللحن جسوراً وضارياً، عبقرياً وطويلاً وعميقاً، كسر، غير مرّة طبول الجيتو الجديد، ودابّته الفولاذية الناعقة، واستجابت مدائنُ الصفيح والحجر والشواهد، لأذان السُّراة، واحتدمت الفضاءات بآفاق الطفولة المزدهرة، بكفوف الحنّاء وتراويد النساء الثاكلات، وتوالد الأمل، تلك الميزة البشرية، وكان من المؤكد أن يتطوّر الإحتمال، ويفهق البركان ويتّسع، لكنهم اعترضوه باتفاقات الهواء، وأبقوا مدننا بلا رؤوس، في زمن السلام الجنائزي! وربما أقول: كان ثمة احتمال، لكن هشاشة التنفيذ وهوامش الخطايا، وعشائرية الثورة، التي لم تصنع المرجل جيداً، أدّت إلى أن يعانق الثائرُ قاتله، قبل أن يحظى بغرفة حُرّة في بيته، ما أتاح للمغتَصِب أن ينقلب بسهولة قاسية، على اتفاق الأمن والإلحاق، مواصلاً استغلاله لصورة المصافحة الفخّ. وذبلت الباقة، بكل مكوناتها المُلفّقة البسيطة، وأرهِقَ العبق إلى حدّ التلاشي، وها نحن نصفق في هُوِّ الفراغ، دون قاع أو نفق نرى آخره مُضَاءً بوجه الحليب أو الكلام.

وكنتُ سأقول: كيف ننتصر بالخيانة أو الضعف والتسليم، لكنني توقفت، وصمتُّ، فأشار الطبيب لي أن أواصل الكلام، لٰكنني استويت في جلستي، ونهضتُ على قدميّ، وقلت له: أيها الطبيبُ الطيّب؛ لم يبق في عُمري غير طفولةٍ هَرِمة، ولم أُكمل الطريق بعد، ولم أصل. ابتسم الطبيب، وقال: أيها الشاعر، لم أرَ في كلامك ما يشير إلى الجنون، أنت عاقل، لٰكنك على حافة الولادة من جديد.

*　　　*　　　*

خرجتُ من العيادة وأنا أحدّث نفسي؛ ماذا؟ كيف سأولد من جديد؟ يبدو أن الأطباء النفسانيين يُصابون بعدوى مرضاهم! وذهبتُ من فوري إلى نصوصي وأوراق قصصي، وتصفحتها، مؤمِّناً على أنها كاملة، لا تشوبها أخطاء الطباعة، وحملتها إلى مطبعة أبي حكمت، واتفقت مع صاحبها على إصدارها خلال أيام.

وصدر الكتاب!

المقدمة

هذه حكايات أو سرديّات تقدم لنا الفانتازي والأسطوري ظاهرياً، ولكنها، وفي الوقت ذاته تدهشنا بأنها تقدم لنا اليومي والحياتي والمعيشي أيضا، لا فرق بين الأمرين. نحن نعيش الفانتازي والأسطوري يومياً، وبكلمات أخرى، حياتنا لا تستقيم ولا تُعاش ولا تُحتمل دون هذا الاستثنائي والمدهش. حياتنا ليس فيها واقعية كثيرة، وليس فيها استثناءات كثيرة، ولكن هذه الاستثناءات على ندرتها هي التي تعطي المعنى والنكهة. هذه صور من الحياة حقيقية، صدقنا ذلك أم لم نصدق، فلا أحد يستطيع أن يقدّم تفسيراً نهائياً، ولا أحد يستطيع أن يصف الحياة وما يمكن لها أن تقدم . وليس هناك شخصيات نمطية، كما أنه ليس هناك حياة نمطية، الحياة أغنى وأعقد مما نعتقد، الحياة أكثر تعقيداً مما نتعلم. المتوكل طه، بلغته الحارقة والنافذة، وقلبه المتّقد، وعواطفه السيّاحة، يلتقط ما حوله، وما سمع، وما عاش، أنماطا تقدم لنا وعيها وحياتها بطريقة استثنائية مدهشة وبالغة الحرقة والألم، والمسألة تتعدى التصديق والتكذيب، أو الحقيقة والواقع، أو الخيال أو التخيّل، المسألة أبعد من ذلك بكثير جداً. ليس كل ما لا نرى هو غير موجود، وليس كل ما نرى هو بالضرورة موجود. وما أصدق مَنْ قال إننا لا نحتاج إلى عينين لنرى. فالحاجة «خدّوج» التي ذهبت إلى مكة وطافت بالبيت العتيق دون أن تغادر مخيمها حكاية حقيقية لأن الفقر والصبر والتضحية لا بدّ أن تُقابل بالإحسان، «خدوج» الفقيرة المضحية تذهب إلى مكة على ظهر طائر أخضر يطوف بها ويعود

إلى مخيمها قبل أن يعود الحجّاج إليه، وأهل المخيم يؤكدون أنهم رأوا الحاجة خدوج هناك.. أصبحت الحكاية حقيقية، لقد صاغ الناس البسطاء والفقراء حكايتهم، لقد أرادوا أن يردّوا جمائل الحاجة خدّوج عليهم، أرادوا أن يجترحوا لها معجزة الذهاب إلى مكة، أرادوا أن يرفعوها من مجرد إمرأة تربّي الأيتام بسيطة وفقيرة إلى قديّسة، أرادوا أن يشكروها.أرادوا أن يحوّلوا كل مخيمهم البعيد والمعزول والمنسي إلى حكاية أخرى. المخيم يستطيع إن ينتج حكايات وأساطير، يستطيع أن يقدّس أبناءه، ويستطيع أن يجعل من أناسه المُهملين والمهمّشين أنصاف آلهة وقديسين وصانعي معجزات. قصة الحاجة خدوج تخرج من أسطوريتها، إذن، لتدخل شرطها الإجتماعي والتاريخي والإنساني، قصة الحاجة خدوج تتمازج فيها الأحلام والأوهام والتخيلات، وكأنها رغبة في الإنتصار على كل شيء.

وذلك بالضبط ما تناقله الناس عن تلك القدرة وذلك الحجاب الحاجز السحري الذي منع المحتلين من هدم قبر أحد الصالحين، هذه حكاية شائعة في بلاد كثيرة في فلسطين. القبر له قدرات خارقة تمنع المحتل من ألإقتراب منه، وقد استوقفتني هذه الحكايات أنا شخصياً، وقد كتبت عن ذلك في روايتي «بلاد البحر»، هذه القصة الشائعة لها مدلولات كثيرة، يتداخل فيها القدسيّ بالارضيّ، والوطني بالسحري، إنها - بشكل من الأشكال - نوع من استبطان الثقافة الروحية ورغبة بإظهار أقوى ما فيها من خلال حكاية لا نناقشها من منطلق

الصدق أو الكذب، ولا نعرضها على العقل، إنما هي حكاية تجعل من القاع العميق للوجدان وجهاً من أوجه النضال، وتحوِّل «السحري» إلى «يومي» وتجعل الإستثنائي جزءاً قوياً وحاضراً في الحياة. وفي فلسطين، أرض البدايات وأرض النهايات كما يقول درويش، فإن للاحداث والحكايات بُعداً لا بدّ من أن يحضر، فلسطين بلد يتسرّب من بين أصابعنا كحّبات الرمل، إن فكرة التشبث والتذكر والإستحضار هي فكرة فلسطينية بامتياز، أقصد هنا، فكرة التشبث بالملموس، وما هذا الهوس بالتراث المادي والمعنوي الفلسطيني الا تعبيراً عن ذلك. ومن هنا نفهم قصة ذلك الرجل الذي حرّم على نفسه أكل البرتقال، بسبب طرده من بيارته على البحر، وكأنه يعاقب نفسه على خسارته ويجلد ذاته على ترك بيارته، وكأنه يريد أن يموت لأن بيارته غابت وماتت. إن هذا العقاب الجسدي يشبه التكفير عن الذنب أو التقرب من البيارة باستحضارها طيلة الوقت. عندما نصوم نتذكّر الطعام دوماً، وعندما يُحَرِّم هذا الرجلُ على نفسه أكل البرتقال فكأنه يستذكر البرتقال طيلة الوقت، وعندما شرب من عصير البرتقال، بطريق الخطأ، مات، وكأنه وقع في خطيئة النسيان. يجب أن لا تنسى فلسطين. حكاية استثنائية تماماً، تقدم لنا فلسطين (المعنى والمبنى) بطريقة مذهلة وحارقة نشعر بعدها وكأننا كلنا مذنبون، مدينون بعدم الصيام، والاستغراق في نشوة النسيان. فلسطين تحضر مرة أخرى في قصة ذلك الذي طُردَ من بلاده التي على البحر، ومن ثم، وخلال طريق التَشرد والعذاب،

ضاعت بغلته التي كانت تحمل كل ثروته، هذه قصة عادية حدثت كثيراً مع مئات الآلاف من الفلسطينيين - وما أكثر الحكايات عن تلك الحادثة التي نستعذب وصفها بالنكبة وهي كذلك وأكثر، رغم أنني أرغب بتسميتها بالكارثة وهي كذلك بحق -، هذه قصة متكررة، ولكن غير المتكرر أن هذا الرجل فَقَد عقله تماماً، فقد انهدم عالمه،انهدمت قريته، وانهدم بيته، وانهدمت ثروته، وانهدمت حياته، إذن، لماذا لا تكون «البغلة في الإبريق»، يعني، لماذا لا ينهدم العالم ما دام الوطن قد انهدم، هل هذا هو جذر الثورة الفلسطينية التي انطلقت من بدايات وارتجالات مختلفة. الثورة جنون، كما أن البغلة في الإبريق جنون مطبق عندما تضيع الأوطان، يختل العالم، والثورة هي الجنون الأجمل والأنسب. في هذه الحكاية فإن الفانتازي فيها يخفى تحته بناء منطقياً وحقيقياً على فهم آخر للحياة، الحكاية الإستثنائية تضىء لنا عالمنا غير الإستثنائي تهزّه وتنقضه، وتنفضه. هذه هي قوة الإستثنائي دائماً، يكشف لنا تفاهة إستنامتنا الهادئة. بالمناسبة، فإن المجموع يكره ما هو فوق المتوسط، فوق المتوسط عادة ما يكون استثنائياً مدهشاً من الصعب التعامل معه، تماماً، كما أن البغلة في الابريق مقولة من الصعب التعايش معها. الإستثناء هو الذي دفع كابور الهندي - الضابط في الجيش البريطاني - إلى أن يغيّر حياته كلها، وأن يلتحق بالناس الذين ينتمي اليهم، وأن يترك الهند ويعيش في فلسطين ويؤسس لسلالة جديدة على هذه الأرض.

والاستثناء هو الذي يربط بين الصلاة وبين مقاومة العدو، إن صلاة ذلك الرجل جماعة دون أن يكون وراءه أحد، لتجعل من الوعي في حيرة من أمره، فهل صحيح أن هناك علاقة بين الصلاة جماعة - وما هي بجماعة - وبين العمليات الفدائية؟! وهل صحيح أن الرجل كان يؤمّ ملائكة تقوم بالعمليات ؟! هذا جزء من وجدان يخلق حكاياته ليتوازن ويتكيف ويواصل. الجنون - كما تقول هذه الحكايات أو الروايات - جزء لا يتجزأ من الحياة، الجنون بأنواعه، المريضة والواعية والخفيفة والاستثنائية، جزء أصيل من الحياة . لا يمكن الإستغناء عن الجنون، للثورة والكشف والفضح والانفضاح والنقض والمواجهة والقدرة عليها، لا بد من لحظة جنون حتى تستقيم الحياة، وحتى نستطيعها ونحتملها ونراها بألوانها الحقيقية .

لا بد من لحظة جنون كاشفة وكاوية ونافذة، ليس للرؤية فقط ولكن من أجل الحياة ذاتها. هذه حكايات ممتعة، من منطلق أنها تقدم الحياة بوجوه عديدة وطعوم مختلفة وأنماط استثنائية، ومن منطلق أنها تقدم اليومي المعيشي بقالب فانتازي، أو أنها تقدم الفانتازي الغريب بأسلوب الحياة المعيش، وكأنّ لا فرق بين الواقع والخيال، وكان الواقع لا يكفي، وكأن التنميط لا يكفي، وكأن حياتنا كلها لا تكفي.

نحن نخص شعباً محتلاً، تضيع فيه بلادنا سنتمتراً سنتمتراً، وفكرة الضياع فكرة مخيفة كالتحديق في الهاوية، وكالسير في عتمة الصحارى التي تأكل

السائر في أعماقها، وفي تلك اللحظات، فإن استنهاض العميق الغافي فينا هو من أهم آليات الحماية والرد والصمود والتوازن. هذه سرديات تقدم الحياة فيٍ لحظات الجنون والخيال.. والكثير من الحقيقة .. تماماً كتلك الفتاة التي حدقت في المرآة، فرأت طبقات من أنواع الحيوات المختلفة .. الفتاة لم تستطيع أن تطيق أن هناك غيرها .. لم تستطع أن تهضم أن الأخرين - غيرها - يمكن لهم أن يجنّوا، لم تستطع أن تختبر تلك التجربة.. فكسرت مرآتها .. هذا الكتاب مرآة مثل تلك التي في الحكاية.

أحمد رفيق عوض
رام الله 2008

السرديات

حَبْشين

«بيّارته أكبر من البحر»، كانت تقولها لنا أُمّي عندما يأتي يوم العيد، ويسلّم عليها ويعيّدها دون أن تتبدّل ملامحه الحجرية الصارمة، ويخرج مكتفياً بكاسة شاي.

ويبدو أنه ارتخى للنهاية اليائسة، فاستسلم، كمريض، لا يتغيّا الشفاء! وربما كان يعتقد أن شَجَرهُ مروحةُ الدنيا، وأن بيّارته أغنية خضراء، ولكن الخنازير قد أخذت قالب الحلوى، ولن يرحمه غيرُ هذا الصمت والحرمان اللذين أعطياه الموازنة الدقيقة بين البقاء والفناء، مثلما أعطياه مقاربةً يظل معها شهيداً في بيت عزائه الذي لن يُغلق إلى أبد الداهرين.

ربما يبتسم، لكنه لا يضحك ولا تُرى أسنانه! ولم يحضر عُرْساً، ولم يشارك في زفَّة أو سامر. يؤدي يومه بآلية رتيبة، ويجلس في حسبته يبيع الخضار والفاكهة، ويظل صامتاً في ذاته ومشاويره الغامضة الزائغة.

كان لقبه «حَبْشين»، ولا يدري أحدٌ ما معناه ومنْ أطلقه عليه، لكنهم ينادونه بأبي زهدي.

وأبو زهدي الذي كان يملك بحراً من بيارات يافا الممتدة حتى أراضي اللد والرّملة.. هاجر إلى بلدتنا وافتتح حسبته، وحرّم على نفسه أكل البرتقال أو شرب عصيره ما دامت البلاد تحت دياجير الاحتلال.

لكن جار أبي زهدي الذي يعرف أنه يشرب من إبريق الفخّار الموضوع على بسطة الشباك الكبير.. قد عصر كمية من البرتقال، وصبّها في الإبريق رحمةً بأبي زهدي ليتذوق فاكهته التي حرّمها على نفسه!

وكالعادة، مشى أبو زهدي إلى إبريقه، ووضعه على فمه، وكرع جرعةً، ثم ألقى بالإبريق بعيداً، فتهشّم!

نزلت جرعةُ البرتقال إلى أمعاء أبي زهدي كأنها سمٌّ زعاف، فتلوّى، فحملوه إلى المستشفى، فضاقت أنفاسه، ولم يلبث يومين حتى مات!

أبو شيبان

ثمة زوبعة ناعمة تدور في الطرقات كأنها غمامة عطر لا يراها أحد، بل يسمع حفيفها، ويشم نرجسها الشتوي.

وثمة قلب صاغه الخالقُ من خالص رحمته، وصبّ فيه فضّة المآذن والنداءات البعيدة ودروب الآلام، وَتَوَّجَهُ قُبّرةً على ذروة الجُلجلة، فشفّ وأنار، وماثل الندى في أحداق البراعم والأجراس، فكيف له أن يكون حجراً صلداً؟ حاول أن يكون كذلك، لكن الحجر ذاب في صدره، وعاد أكثر رقّة من لمسة العروس لمفاتنها المقدسة.

لعل إيمانَ أبي شيبان لم يحتمل أن يرى «اليهود في القدس»! ويسقط عليه هذا الأمر قدراً ثقيلاً! فالأهون عليه أن يغادر هذا الواقع والقدر المحتوم ويغادر وَعْيه، لأن هذا الوعي لا يستوعب قسوة «الحقيقة» المناقضة لكل وَعْيه واحتمالاته.

وبمغادرته إلى عوالم كثيرة، فإنه يكون في حالة دفاع دائم عن إيمانه الذي تقهقر أمام ذلك الحدث الداهم الثقيل.

وبالتأكيد، فإن إيمان أبي شيبان لم يتغيّر، لكنه هُزم كشخص. فثمة مؤمنون لا يحتمل إيمانهم أن يُهزم، لأنهم يدركون أن هناك مُجبرات وفجائع وحقائق مبهظة في الحياة، لهذا يقاومونها ويرفضونها ويتألمون لذلك، وقد يُهزَمون كأشخاص، لكن إيمانهم لا يُهزم! لأنهم على يقين أن الإيمان كينونة وليس كائناً.

* * *

نشعر بندم شديد! لكننا كنّا صغاراً لا نُدرك أن اجتماعنا ولحاقنا بأبي شيبان وصراخنا خلفه مستهزئين سيورثنا هذا الندم الممضّ!

كان رجلاً قد تجاوز السبعين، يمشي هائماً على وجهه المفزوع بلحية شائكة بيضاء،

وسروال متّسخ، حافياً زائغاً، وكثيراً ما كانت روزته تنفتح فتبدو كالعباءة على كتفيه، فتظهر شلحته المتسخة وسرواله الفضفاض المُهترئ.

وأبو شيبان كان رجلاً ولا كل الرجال.. عاقلاً.. دمثاً.. قليل الكلام.. محتشماً.. خجولاً.. ذا مروءة وكرم، لكن صبيحة اليوم الثاني من نكسة حزيران العام ١٩٦٧ كانت كافية لأن يخرج أبو شيبان على غير هدى إلى الناس يسألهم عمّا جرى، فصار يمسك بقبّة هذا ويد ذاك، ويلكز هذا ويصرخ في وجه ذاك، وهو غير مُصدّق، ويكرّر جُملته الواحدة: هل هُم في القدس الآن؟ ثم يصرخ: اليهود في القدس.. يا باي، ويلطم على وجهه، ويبكي! فيضرب الناس كفّاً بكفّ ويقولون: لقد جُنّ أبو شيبان!

وظلّ أبو شيبان ينظر في الوجوه، ويتفحّص الخلائق الذين انغمسوا في أعمالهم صارخاً في وجوههم، يشدّ مَنْ يجده، حتى باتوا يتحاشونه، كأنهم يفرّون من سؤاله الذابح!

كان طبيعياً أن تصدف أبا شيبان دائراً كالزوبعة في الأزقة والشوارع، يتمتم بكلامه المُبهم وخطواته السريعة التائهة، حتى غاب عن الأنظار،

ولم يفطن أحد لغيابه، فقد وجدوه متكلّساً في حقل الليمون جوار البلدة لشِدّة البرد، فظنوه مجمّداً أو مغمياً عليه، لكن طبيب الوحدة الصحية أكد أنه ميت منذ ما يزيد على شهر، والعجيب أن جثته لم تتعفّن ولم تتغضّن، وظلت بطراوتها وأنفاسها الدافئة كأنه حيّ يرزق.

وظلّت البلدة دون سؤال!

صلاة الجماعة

قرنفلة المصاطب الفوّاحة تحت قبّة البرتقال تتّسع لأبناء الأنبياء الذين يحرسون قلعة السلام والقلوب، ولها أن تبدّل ثوبها الطفل من اللبن إلى العندم حتى ينتهي الغروب بعنادٍ أشدّ من عناد الواهم، ولها أن تقيم صلاتها الفذّة حتى تكون الوردة بركاناً من حمم الجلّنارة العارمة، ولها بالنداء الخفيّ استدراج طيور بدر الأولى ليعودوا إلى أرض تليق بهم، وينزلوا إليها كل نهار وليلة قَدْرٍ ومسيرةٍ تطفو فوقها النعوش الطائرة.

أبو سَلَمة خفيف الظل، ذو غمازتين حلوتين، واثق كل الثقة من أنّ للبيت ربّاً يحميه. فما إن يتحادث الرجال عن الشائعات التي تقول بأن اليهود سيقومون باحتلال ما تبقّى من القدس، حتى يدير ظهره لهم، ويقول جملته البيضاء في وجه كلامهم الأسود، ومفادها: إن للحَرم ربّاً يحميه! أما في يوم الخامس من حزيران في ذلك العام المشؤوم ١٩٦٧، فقد هُدمت قناعة الرجل عندما سمع جنوداً يرطنون بلغة غريبة تختلط مع قعقعة السلاح وأسماء لم يعهدها؟ ففتح أبو سلمة الشباك، ونظر إلى السماء، وقال: لماذا تحرجني؟ ماذا سيقول الناس عني؟

* * *

بعد شهور رأى الناس أبا سلمة يذهب عند أذان المغرب، ويقف بين شواهد القبور، في مقبرة الرحمة شرق البلدة القديمة، وحده، ثم يُقيم الصلاة وحده، أيضاً، ويقف إماماً وينظر يمينه ويساره ويقول: استقيموا إلى الصلاة يرحمكم الله، استووا واعتدلوا أثابنا وأثابكم الله، ويصلّي كأنّ وراءه مُصلّين! وكم كان استغراب مَنْ رآه يصلّي إماماً في جماعةٍ وهو وحدَه ليس إلاّ.

وتكررت صلاة أبي سلمة وإمامته في الناس غير المرئيين، وكان ذلك كل أسبوع تقريباً! وصادف أن أبا سلمة كلّما قام بصلاته تلك وقعت عملية فدائية؛ تفجير هنا وقنبلة هناك، ورصاص هنا وكمين هناك، وراح الناس يربطون بين إمامة أبي سلمة في المقبَرة والعملية البطولية التي ستقع بعدها بساعات!! وذُهل أهل المدينة غير مصدِّقين تلك العلاقة الحقيقية والمبهمة، والرابط الذهبي بين الصلاة والجهاد!

ووصل الخبر إلى المخابرات الاحتلالية، فقامت باعتقال أبي سلمة، وأخضعته لتحقيق مكثف وشرس وطويل، غير أنها خرجت خالية الوفاض، ولم تتمكن من استخراج حرف واحد من فم أبي سلمة، فوضعته في زنزانته وحيداً مُنعزلاً .. وراحت تراقبه!

كانت المخابرات قد وضعت عدسة كاميرا تراقب أبي سلمة ليلاً ونهاراً، وتعدّ عليه أنفاسه، وتراقب صلواته ودعواته ونومه وقضاء حاجته!

وأخيراً، لاحظوا أن أبا سلمة قام ووسّع المكان الضيق في زنزانته، ونفخ غبارها ومسحه بيده،

ووقف في زاوية الزنزانة وكبّر وأقام الصلاة، ونظر خلفه يميناً ويساراً وقال: استقيموا إلى الصلاة يرحمنا ويرحمكم الله، استووا واعتدلوا أثابنا وأثابكم الله، وراح يُصلّي جهراً صلاة المغرب كأنّ أسراباً خلفه تؤمّن على ما يقوله من كتاب الله العظيم، وفي اليوم التالي كانت عملية فدائية قد خسفت تجمعاً لجنود الاحتلال! فأعادوا أبا سلمة إلى التحقيق، ولكن دون جدوى!

عمّي كابور

كثيرة هي المستعمَرات التي خضعت لحمولات الحديد الثقيل، والتي أحالت أصحاب الثرى والعشب أقناناً وعبيداً يسلخون فروات رؤوسهم لتكون معاطف للسادة البيض؛ القتلة. وكثير من المتنوّرين الذين باعوا نار بروميثيوس وبندورا وقناديل ديوجين للدجّالين ومصاصي الدماء، فكانوا، على رجولتهم البادية، كالمخصيين في بيوت الدعارة. وقليل كثير، أو كثير قليل، مثل كابور أو عمّه طاغور الذي رفض أن يكون «سيّداً» بأمر التاج الذي يبهظ أهله وشعبه وبلاده الرائعة.

لم يعد «كامب رأس العين» كما وصفوه لنا! غير أنّ بناية سكّة الحديد التي تقابل المعسكر البريطاني المذكور ما زالت قائمة على رَهَق وخراب. ففي هذا المعسكر وفي الثلاثينيات من القرن الماضي كان «العايق» يعمل سُفرجياً أو قل طباخاً لجنود الانتداب، وبالرغم من أنه أُميّ، فإنه يتحدث الإنجليزية بطلاقة واضحة وبلكنة أهلها، وكان صديقاً للكابتن كابور الهندي.. أحد الضباط البريطانيين المسؤولين في هذا المعسكر.

*   *   *

توقّف القطار مساء أحد الأيام، وأنزل الجنودُ مجموعةً من المعتقلين المكبّلين بالسلاسل، وأدخلوهم إلى سجن المُعسكر، وطلبوا من كابور أن يتحفّظ عليهم حتى يتم نقلهم إلى سجن عكا لتنفيذ حكم الإعدام فيهم، فهم «إرهابيون» يقاتلون بريطانيا العُظمى!

لاحظ كابور أن المعتقلين في غرفتهم، ببوابتها الحديدية الغليظة، قد اصطفوا خلف أحدهم، وراحوا يركعون ويسجدون، وأطالوا في صلاتهم! أمَرَ كابورُ العايقَ وطاقمَ المطبخ بأن يعدّوا طعاماً للمعتقلين، وأن يكثروا منه، وأدخل إليهم الماء والشاي والسجائر! ولم يذهب كابور إلى سريره، فقد تسلل إلى بوابة السجن ليعرف قصّة هؤلاء المعتقلين!

* * *

في كهف بعيد، جلس أفراد المجموعة دون سلاسل وقيود، ومعهم العايق وكابور، فقال أحدهم: لنُصلِّ ركعتين شُكراً لله، فوقفوا خلف إمامهم، ووقف معهم كابور مُكبّراً! فأوقفوا صلاتهم وراحوا يعانقونه بقوة وثبات.. إنه مسلم مثلنا! ولهذا هرب بنا من السجن. بعد تسع سنين اندحر الانتداب، وخرجوا من كهفهم، وعاد كل منهم إلى أهله. بعد شهر كان العايق قد حمل

شقيقته عروساً إلى كابور، وأعطاه الغرفة المجاورة لغرفته، وأصبح أولاد الهندي أصدقاءنا في المدرسة وإخوتنا في الحياة، غير أنهم كانوا يسبقوننا في قذف الحجارة ساعة المواجهات، أيام تلك الانتفاضة الطويلة، والتي توّجها أحمد- ابن كابور- بأن كان أول شهيد في البلد يوم أن انفجرت البلاد بعبقرية واحتدام.

البغلة في الإبريق

لم يخرج من قريته حتى يعرف أن الدنيا أبعد من خط المحراث، لكنه كان يتنفس مع الجذور التي تقطعت في التراب الذي حَزَّه لتوّه، فيعرف أن الموسم سيكون مائساً وجزيلاً. أما ذلك العام، فقد يبس سطحُ المروج وتثلّم المحراث، وتقرّحت جروح البغلة، بل أخذه النومُ ولم يستيقظ على مدار أسبوع لصلاة الفجر، حتى أنه قال: لقد رأيت مناماً صعباً، ونسيتُ أن أستعيذ باللّه من الشيطان، وأن أتفل عن يساري ثلاث مرات... لقد كانت إشارات تؤكد الذي جرى.

كان أبو العبد حرّاثاً محترفاً، حتى إنهم قالوا: إن بغلته تفهم عليه، وتشفق على عياله! وفي الشتاء كانت الحراثة وافتراع الأرض يتوقّفان، فيظلّ أبو العبد في جامع «سيدنا عليّ» القريب من الشاطئ شمال يافا خادماً أميناً له، يعبئ أباريقه، ويشطف المتوضّأ والكنيف، ويغلق بوابته ليعيد فتحها قبل التذكير لصلاة الفجر.

وزلزلت الأرض، وانطبقت السماء عليها، وتفشّت شائعات المذابح قبيل النكبة، وغاصت العُصابات في الأرحام والدم والأعراض، فحَمَل أهالي قرية «سيدنا علي» بعض أمتعتهم وذهبوا شرقاً لينجوا بأعراضهم وصغارهم، فوضع أبو العبد ما يملك من جنيهات في خُرج البردعة وغطّاها بالجاعد، واعتلى البغلة وخلفه ابنه العبد وأمامه ابنته الصغيرة، وسارت أم العبد مع أهلها خلفهم. وما إن وصلوا إلى مشارف القرى الشرقية حتى باغتتهم العصابات برصاصها المجنون وزعيقها وقنابلها، فتفرّق سرب المهاجرين، وجفلت بغلة أبي العبد، وربما أصابتها رصاصة، فهاجت، فوقع أبو العبد مع صغيريه عنها، وشَرَدت البغلة بما تحمله!!

*   *   *

حلّ اللاجئون في المدرسة، ونزل بعضهم عند أقاربه، ثم رحل معظمهم إلى شتات الجهات، وظلّ أبو العبد وحيداً في المدرسة، فقد قَتَل الرصاصُ زوجَته، ومات صغيراه لدى سقوطهما العنيف عن البغلة، على رغم أنهما بقيا على رمق من الحياة لمدة شهر تقريباً قبل أن يدفنهما أبو العبد بيديه!

عمل أبو العبد آذناً وفرّاشاً دون أجر في المدرسة اليتيمة التي كان ينام في إحدى غرفها، والناس لا تقطع إحسانها ولفتاتها تجاه هذا الثاكل الصموت!

كانت كلمة «البغلة» هي كل ما يردده دون قصد مع نفسه، فيسمعه البعض يرددها، فيسألونه؟ فيقول: لا أدري! فيقولون: ربما في القرية الفلانية أو العلانية، اذهب واسأل، فربما وجدها أحدهم.

يحمل أبو العبد نفسه ويدور في القرى، ويسأل مَنْ يصادف: أين البغلة؟ فيحسبونه معتوهاً أو مجنوناً، فيتركونه ويمضون في شؤونهم، حتى وصل الأمر بأبي العبد إلى أن يُفتّش زواريب البهائم وسقائف الحمير والبغال وحوايط الغنم والابقار،

فيظنونه سارقاً، فينهرونه، فيزداد غضباً، وينفجر حانقاً إلى أن راح يفتش الدكاكين والمحلات، فيدخل على أحدهم ويأمره أن يفتح جارور مكتبه أو خزانةً منصوبة في محلّه، وينظر في المرطبانات والأباريق، فيستغربون سلوكه، ويسألونه: عمّا تبحث يا هذا؟!

فيجيب: عن البغلة!

وهل البغلة هنا؟

فيقول: ربما تكون هنا في الخزانة أو هناك في الإبريق.

وما زالت البغلة تركض في السهوب والشعاب والجبال والليل، وما زال أبو العبد يبحثُ في الإبريق!

الحاجة زينب

العدالة التي كان يجب أن تكون سيدة تزهو بصداقتها لزينب هي الآن سيدة عمياء لا ترى ما جرى ويجري هنا، وليس هنا فحسب، بل في أرض السواد القاني، وفي بلد التين والزيتون الذي كل شيء فيه شهيد؛ الحجر والشجر والطير والرضيع.

وأُمّنا زينب التي حملت ميراث الطفّ وكربلاء هي زينب التي ستلد بعد حينٍ حُرّة، كاملة العسل والينابيع، وستقول للعالم المليء بالقوانين إنها في النهاية ستُطيع نفسَها، وستبقى حُرّة، وستُعيد البصيرة إلى السيدة العمياء؛ العدالة!

ليس للحاجة زينب ذكرٌ عالٍ في الدنيا، ولم يعد لها جثمان يردمون عليه التراب، ولكن لها أبناء يذكرونها بالخير، ويقدّمون لحضورها البهي فاتحة طاهرة ودمعة صادقة، ولربّما لن ينساها المخيم ما بقي.

كان الحنّاء أخضر على كفّيها وكعبيْ قدميها، ولم تلبس من ثياب صندوق الصندل إلاّ المطرّز ذا الأردان، والشال الشامي الناعم، لكنها احتملت مع «أبي السعيد» عيشة الخيمة، وأقامت معه السقيفة في المخيم حجراً حجراً، وجبلت بيدها التراب المخلوط بالقشّ والتبن، وابتهجت للمعة ألواح الزنك وهي تغطي سقف الغرفة التي مدّها أبو السعيد بالإسمنت المالس.

وكبر سعيد وسعاد، ولم يشعرا باليتم بعد أن سقط أبو السعيد عن سقالة البناية التي كان يعمل فيها، ولم يكونا قد تجاوزا الثامنة والسادسة من عمرهما. وهاجر سعيد إلى الكويت، وتزوجت سعاد في قرية مجاورة، وأقام سعيد بعد سنوات من البحبوحة والعمل داراً مكان السقيفة!! وعندما وقعت نكسة حزيران العام ١٩٦٧، كان سعيد في الكويت،

ولم يحصل على «المواطنة» فكان يأتي لزيارة والدته «أم السعيد» كل عام أو اثنين بوساطة تصريح من «الإدارة المدنية» المحتلة.

أما سعاد، فقد دهمها مرض فتّاك بعد زواجها ببضع سنين. وبقيت أم السعيد وحدها في البيت، تفرش حنانها وعطاءها على كل بيوتات المخيم، حتى أصبحت أنيسة كل محتاجة أو مصابة، وجابرة خواطر الأرامل والمستورات. وعند الغروب تفرش سجادتها أو الجنَّبيّة على مصطبة مدخل بيتها، تسبّح وتتمتم، وتردّ التحيات بأحسن منها على الصغير والكبير، وتأتي الختيارات والعجائز والجارات ويجالسنها، حتى بات مقعدها ديواناً يقصده كل مَنْ يبحث عن أمّه أو زوجته.

خلال سنوات الانتفاضة الكبرى، ومنذ اندلاع انتفاضة الأقصى المتواصلة، ازداد نشاط الحاجة زينب التي شاركت كل دار بالمخيم بدموعها وزغاريدها، ولها الطاعة والاحترام، ولرأيها الذي قلّما تدلي به النفاذ والتقدير.

وعندما حاولت الدبابات والمدرعات والجنود المدججون اقتحام مخيم جنين، كانت أم السعيد تتحزّم وتشدّ رأسها بعصبة المنديل، وتلحق بالشبّان،

في محاولة لتقديم أيّ شيء قد يحتاجونه، وصوتها يعلو بالدعاء والدعوات، حتى أصبح وجود الحاجة زينب جزءاً من مشهد الشباب وهم يتحلّقون في الساحة أو خلف الجامع ، تقتعد حجراً مثلما يفعلون، وتنسلّ لتعود وهي تحمل بعض الطعام وصينية الشاي، وتظلّ معهم حتى انبلاج الخيط الأبيض.

ولمّا اجتاحت المدافع والآليات والجنود المخيم، وراحت الطائرات تقصف، والمدافع ترمي، والمدرعات تهرس كل ما يعترضها وتجرش كل شيء، وضاق المخيم على ضيقه بمَن فيه، اضطر عدد من الشبان إلى الاحتماء في بيت أم السعيد.

لاحظت الحاجة زينب أم السعيد أن ثمة صندوقاً يحمله الشباب مليئاً بالمتفجرات والديناميت، فصمتت واعتراها ذهول حتى كأنها يبست في مكانها، فظنّ بعضهم أن الخوف نال منها، وفجأة طلبت من أحد الشبان أن يذهب سريعاً ويحضر لها الشيخ أحمد، ولمّا حاولوا استفهام ذلك، قطعت الجدل بإعادة طلبها، وبعد دقائق حضر الشيخ، فأخذته بعيداً عن الشبان وهمست في أذنه، ولم يَر الشبان الشيخ إلا وهو يومئ بالإيجاب،

ثم قالت له: انتظر يا شيخ، ودلفت إلى غرفتها، وأحضرت رزمة أوراق ملفوفة بالنايلون القديم، ومبلغاً من النقود أعطته للشيخ، وقالت له: هذه الأوراق هي كواشين أرضنا ودارنا في «البلاد»، أعطها للسعيد أمانة، وهذا المبلغ توزّعه بمعرفتك على المحتاجين، ثم استدركت قائلة له: أكيد شهيدة يا شيخ؟ فقال لها: أكيد يا حاجة، فابتسمت له وقالت: اللّٰه معك، سلِّم عل أمك وعيالك. وخرج الشيخ أحمد من البيت وهو يقلّب في يده الرزمة والدنانير غير واعٍ لما يحدث.

بعد ساعة أو أقل، فتحت الحاجة زينب باب بيتها، وراحت تنادي الجنود الإسرائيليين وهي تولول، طالبة منهم أن ينقذوها من مجموعة شباب مسلحين دخلوا دارها ويحاولون سرقة مالها وذهبها، فهجم أكثر من عشرة جنود نحوها، ودخلوا وهي معهم، وبعد ثانية أو اثنتين انفجر البيت وتطايرت شظاياه، وانتعفت نوافذه وأبوابه، وهبط سقفه على مَنْ بداخله. وعلى بعد أمتار معدودة، كان الشبان يقفون خلف نافذة أحد البيوت، بعد أن ضغطوا على مفتاح المُفجّر، وعيونهم الحمراء الدائخة تسحّ على أم السعيد.

الكلب أبيض

بضعة أيام، والفتيان ينامون على اطمئنان الرضا، وكلبهم باسط ذراعيه على مصطبة البيت العتيق، الذي وصله، قليلاً وأخيراً، ورثةُ أبرهة وأبي رغال، لكنّه الوفيّ الذي لم يبرح بياضه الأصيل الماسيّ، فإن كانوا أربعة فخامسهم كلبهم، أو خمسة فسادسهم، أو سبعة فثامنهم، وإن كانوا شعباً من المطاردين والمعتقلين والجرحى، فإن المعادلة ستكون: شعبٌ تحرسه جباله وأشجاره، وكلابه أيضاً.

لم يرَ أهلُ البلدة قوات عسكرية ضخمة مثل تلك التي دهمت الدار التي تمترس فيها الشبّان المطاردون، مصطحبة معها الجرّافات وخبراء المتفجّرات والمناظير والمدفعية والجنزرات، واستمر حصارها الدارَ يومين متتاليين، شهدت خلالهما زخّاتٍ متقطعة وكثيفة وصليات وانفجارات وإضاءات ورميات ثقيلة. وانسحبت قوات الاحتلال، وظلّ بعضها يفرض منع التجول على البلدة، ويمنع الناس من الخروج، بل مَنْ ينظر من نافذته تأتيه رشقات القنّاصة من حيث لا يحتسب!

مرّ أسبوع والدار التي حاصرها الجنود قد تهدّمت وهالَ سقفُها على أرضها، وبالتأكيد استشهد مَنْ كان فيها! غير أن الجيران كانوا يرون كلباً أبيض اللون يربض أمام بوّابة الدار المهدومة، وخافوا أن يكون قد أقدم هذا الكلب على مناوشة جثث الشهداء واقتطاع لحمها! فماذا يفعلون؟ لا حول لهم ولا قوّة!

ومرّ أسبوع آخر حتى انسحب الجنود، فهرع الناس إلى الدار ليستطلعوا ما جرى، فوجدوا جثث الشبّان غضّة سليمة، ودماؤها يانعة خضراء متدفقة ساخنة، كأنهم سقطوا قبل لحظات!

ولم يمسسها كلب أو طير أو غارب! وحينما حملوا جثث الشهداء، وخرجوا بها من بين الأنقاض، رأوا الكلب الأبيض يقف بعيداً، ثم أدار ظهره لهم.. ومضى!

لوحة الانفجار

كأنّ سيف النار قد دخل لحمه ونما معه يوماً بيوم، فكان أشبه بذلك الفارس الذي لا يُقهر! وكان يا ما كان أنّ السلطان أراد من ذلك الفارس الذي لا ينتصر إلاّ للعدل والحق أن يكون معه على الرعية البسطاء وضد أحلامهم الفقيرة المذبوحة، لكن الفارس أبى، وخرج على الحاكم الذي رماه إلى التنّين العظيم، فابتلعه، لكنّ الفارس، وبسيفه الذهبي شقّ بطن التنّين، وخرج إلى صهوته، ينفث ناراً تحرق السلطان، ويضيء الطرقات للأيتام والثكالى والضائعين!

كان ذلك أيام تلك الانتفاضة العبقرية التي أصبحت مثلاً للعالَم المقهور! والتي أعجزت الاحتلال ومنعته من زجّ سلاحه الثقيل في المعركة! فالحجر لا يمكن أن يتصدّوا له بالجنزرات، وعلى رغم هذا أحضروا كامل عتادهم المُحرّم، وفرضوا حظر التجوال على المدينة بعد حفلة اشتباك حامية الوطيس، تهشّم خلالها أكثر من وجه، وانكسرت أكثر من سحنة، برغم الخوذات الفولاذية والرصاص الطائش والغاز المسيل للدموع!

ولم يجرؤ أحد على الخروج من بوابته، فالقنّاصة بالمرصاد، والجنود هائجون، والهواء يرتعد ويرجّ ترقّباً وخوفاً وانتظاراً، لكنّ جارتنا الحامل قد شارفت على الولادة، وباغتتها الحقيقة، ولا بُدّ من أن تضع جنينها، فاضطر زوجها أن يخرج من بيته حاملاً قميصاً أبيض، وراح يلوّح به، عسى أن يستمع الجنود لمطلبه، لكنهم راحوا يطرّزونه بوحشية خردقت جسده فترنّح وهوى! وخرجت امرأته الحامل على صوت الرصاص، فرأت زوجها، وقبل أن تصل إليه صارخة مفجوعة بادرها الجنود بزخّات متلاحقة فتكوّمت فوقه، وجرى دمهما، وراح يتجمّع في بِرك صغيرة، ويسير كالجداول الصغيرة على الشارع.

جُنّ جنون أهل الحيّ فخرجوا دفعةً واحدة مكبّرين صارخين، واتصل بعضهم بسيارات الإسعاف، وهاجوا وماجوا، واشتبكوا مع الجنود الذين اضطروا أمام انفعال أهل الحيّ وتقحّمهم أن ينسحبوا، وجاءت سيارة الإسعاف وحملت الأب والأم والجنين الذي مات قبل أن يرى الحياة.

أذكر أن طفلاً لم يتجاوز العامين، وخلال اشتعال الحيّ واندفاعته الأسطورية وهجومه على دوريات الجنود، كان قد خرج من بيت الرجل، وراح، دون وعيٍ، يمسح بكفّه الصغيرة الدم عن جسد أمه وأبيه، ويصبغ به وجهه وملابسه، وما إن هدأت الحال، وحملوا الجثتين، وقبل أن يذهب كلٌّ إلى بيته، رأوا الصغيرَ مصطبغاً بدم أهله، باكياً، لا يعي ما يجري، وجاء أعمامه وأخذوه.

*　　*　　*

بعد ثمانية عشر عاماً، تردّد في الحيّ أن شاباً من سكانه الأوائل قد قام بعملية استشهادية! ولمّا استوضحْنا الأمر، قالوا إن الاستشهادي هو ذلك الصغير، أتذكرونه؟

وهل يُنسى؟

ما زلنا نراه لوحةً داميةً ملطخةً باكيةً أمام جثتين تنزفان..

وتنزفان.. وتنزفان.. في وجه العار الطاعن في البلاد.

. . . .

. . . .

ثم يقول العميان: لماذا ؟

الحاجّة خدّوج

الفقراء لهم إسْراؤهم بأمرِ ربّهم العفوّ الوهّاب، وللثكالى أُمهاتِ الصغار المفجوعين بالفَقْد معراجُهن في البياض الحصين، فإن نامت إحداهن حملتها الملائك إلى البيت العتيق لتبلّ قلبها بالحشد الخاشع العظيم، وليربط اللّهُ على فؤادها لتمضي بالأيتام إلى مشارف البلوغ والاطمئنان، لترى كلُّ ثاكلٍ رجالَها يومَ عيدٍ قريبٍ يترون الواحد خلف الآخر يقبّلون الشيب والكف، وتنهمر دمعة الثلج التي كانت قبل قليل كاوية. ولا كفر ولا تكفير مع هذا التأويل، ، لأنهم رأوا هذه الحقيقة ولامسوها بأمّ أعينهم.

تجتمع الجارات والقريبات، يردّدن ذلك الغناء الذي لم يعد يذكره جيلنا، إنه «حنين الحجّاج»، وهو عبارة عن ترويدات هادئة موقّعة، لكل مقطوعة منها لازمة، وتتحدث عن سفر الحجيج الى بيت اللّٰه الحرام، والشوق للرسول العظيم (ص)، والتمنّي على اللّٰه أن يُعيد حُجّاج بيته سالمين إلى ديارهم وقد تقبّل تبتّلهم ودعواتهم.

سافر الحجيج في الحافلات التي سارت بعد صلاة الفجر المشهود وسط الدعاء والتكبير والتهليل.

وعاد الحجّاج بثيابهم البيضاء ووجوههم الوضّاءة، وراح أهل المخيم يتدفّقون على بيوتهم مهنئين مباركين، غير أن أحداً لم يذهب لتهنئة خدّوج!

وخدّوج هو اسم التحّبب الذي أطلقوه على خديجة منذ ولادتها، وهي امرأة في مطلع الأربعين من عمرها، ترك لها زوجها الشهيد سبعة أبناء صغار، ولا تملك من حُطام الدنيا غير ما تجنيه من ماكينة الخياطة التي لم تعد تأتي بهمّها!

والمخيم على امتداده صغير، والناس يعرفون دواخل بعضهم كأنهم أسرة واحدة، وقد علم الذين عادوا من الحجّ أن أحداً لم يزُر خدّوج ولم يهنئها بإتمامها فريضة الحج!

لكن خدّوج لم تحجّ، وظلت في المخيم! بل من أين لها أن تحجّ؟

لكن حجّاج المخيم أقسموا، نساءً ورجالاً، أنهم رأوا خدّوج تقف معهم

على جبل عرفات، ولمحوها وهي في صحن الكعبة المُشرّفة، وتُصلي في الحَرَم المدني الشريف، وتبكي أمام قبر النبي وتسلّم عليه أفضل الصلاةِ والسلام!

لكن خدّوج لم تخرج من المخيم منذ ترمّلت، ولم تركب حافلةً، ولم ترَ مكة أو يثرب، ولا تحمل جواز سفر أصلاً!

* * *

ذهبت النساءُ اللواتي أتممن فريضة الحج سويّة إلى بيت خدّوج، فعبق بخور الحرم في صحنه المتواضع، ودلفن إلى الغرفة الصغيرة فوجدنها في ثيابها الناصعة مشرقةً متهلّلة، فقدّمت لهنَّ التمْر وشربة ماء في فنجان... قبّلنها وقفلن عائدات.

ولمّا سألهن أزواجهن: أين كنتنّ؟ وكيف خرجتن من البيوت دون أذونات منّا؟ كانت تقول كل واحدة منهن بصوتٍ حاسم: كنّا عند الحاجة خدّوج!

دائرة العار

لم نتعلم تماماً من حكمة المرأة في
حادثة بزرجمهر؛ تلك التي رفعت
سترها لأن الجموع خالية من الرجال!
وها هي الدائرة تعود بَدّاً حجرياً
طاحناً للقلب وجير العظام، وكأننا
استمرأنا العذاب، وفَقَدنا بساطة
القول بأن الفرس تحتمل سَرْجاً واحداً
لا سرجين.

تصل الحافلةُ قبل صلاة الصبح، وعلى الأهالي أن يكونوا مجتمعين أمام مكتب الصليب الأحمر، ومَنْ يتأخر دقيقة واحدة لن يزور! فالطريق تحتاج سبع ساعات على الأقل، وعلى السائق أن يعود قبل المغرب، لأن التصريح الذي يحمله يبدأ من الساعة الخامسة صباحاً حتى الساعة السابعة مساءً.

تنطلق الحافلة في الليل البهيم، ويكمل معظمُ الأهالي نومَهم فيها، ومع الشروق وضوضاء الطرقات يستيقظون، ويتبادلون أطراف الحديث، ثم يفتحون أكياسهم وحقائبهم، ويمضغون ساندويشاتهم الخفيفة بتخفٍّ وهدوء، ويسكب بعضهم الشاي أو القهوة من الترموسات التي أحضروها.

ويتعازمون ويدخّنون، ويأخذهم الكلام الذي لا ينقطع إلاّ عند كل حاجز تفتيش من الحواجز الثمانية التي توقفهم وتدقّق في أوراقهم وهوياتهم وتفتّشهم، وغالباً ما وصلت الحافلة بعد انتهاء وقت الزيارة، فيعود الأهالي كما جاؤوا، دون أن يروا أبناءهم وإخوانهم، أو يطمئنوا على أحوال المعتقلين!

كان جنود الحواجز يتعمّدون تأخير حافلات الزيارة ساعاتٍ وساعات، على رغم إشارة الصليب الأحمر التي تغطّي زجاج الحافلة الأمامي، كأنهم ينتقمون من المعتقلين ومنْ الذين أتوا بهم إلى هذه الدنيا! وأخيراً تصل الحافلة، فتجتمع الحافلات من كل المدن شمالاً وجنوباً، وينزل الأهالي في الساحة المكشوفة لأنّ على الحافلات أن تنتظرهم هناك على بعد كيلو متر في المكان المحدد لها.

وبالمناسبة، كثيراً ما تصاهَرَ الأهالي وتعارفوا وتزاوجوا لطول ما التقوا في الزيارات.

ونعود إلى الأهالي الذين عليهم أن ينتظروا، فكل سجين له عشرون دقيقة يلتقي خلالها مع اثنين من أهله القريبين إليه من الدرجة الأولى (أب أو أم، ابن أو ابنة، أخ أو أخت، فقط).

ويدخل الأهالي حسب الترتيب الأبجدي لأسماء المعتقلين، ويُسمح بدخول عشرين من الأهالي لعشرة من أبنائهم، بعد حفلة تفتيش جسدي، وتحقيق وتدقيق، وسَمِّة بدن، وصراخ وأوامر وتحذيرات، وشتائم، وتحديق، وريبة... ويلتقونهم من خلف شبك حديدي مغطى بالكامل بلوح بلاستيكي أو زجاجي شفّاف،

وثمة فتحات صغيرة ليسمع بعضهم بعضاً.

والأهالي في الساحة المكشوفة محظوظون إذا لم تكن الشمس مسلّطة عليهم.. أو إذا كانت السماء لم تحمل ماءها حتى تنتهي الزيارة، ولطالما غرق الأهالي بعرقهم الدبق الغزير، أو تحت المطر وفي وحل الساحة الطامي الرخو!!

وكل ذلك يهون ومقبول ومعقول ويمكن استيعابه! ولكن، إذا أرادت امرأة أن تقضي حاجتها، فأين تذهب؟! لا مرحاض ولا تواليت ولا كنيف ولا خارج ولا حمّام ولا يحزنون، فالساحة مكشوفة مسوّرة، وعلى زواياها الأبراج والمراقبون المسلّحون! فماذا تفعل الأمهات والأخوات؟ وبالمناسبة، فإن الرجال يذهبون إلى السور ويقابلونه مباشرةً ويفرغون مثانيهم، والجميع يتحاشى النظر إلى مَنْ يذهب إلى هناك! ونعود إلى النساء، ماذا يفعلن؟

قررت النساء أن يقفن على شكل دائرة محكمة الإغلاق وظهورهن إلى ظهور بعضهن حتى لا يستطيع الهواء النفاذ بينهن، وتدخل كل مَنْ ازدحم الماء في مثانيها، ويتوالين، وغالباً ما استمرت النساء المتعبات في التنادي لضرب هذا الإطار الدائري

ساعات طويلة، وبالطبع فإن الحالة لا تخلو من صوتٍ هنا أو رائحةٍ هناك، ومن ضحكةٍ هنا أو غمزةٍ هناك، وهكذا قضين حاجتهن، وتغاضين عن جنود الأبراج الذين ربّما يرون مَنْ تُقرفص وسط الدائرة! والرجال، طبعاً، يقفون معاً بعيداً عن دائرة العار هذه !!

... وفجأة ، وفي الزيارة الأخيرة ، وعندما انهلك الأهالي من الرطوبة والانتظار، وهدّهم الجوع والتعب، وكانوا يفترشون الأرض في هذا الصيف القائظ، وقفت امرأة من الأهالي وأنزلت تنورتها، ثم أنزلت سروالها الداخلي، وقرفصت لتقضي حاجتها، فتصايحت النساء، وأدار الرجال وجوههم محوقلين، وحاولت النسوة أن يضربن حولها دائرة الإخفاء، لكنها صرخت....!

إسمنت الآلهة

بعد أن برأت جروحه التي أثخنته في حطين، وصل متأخراً إلى المسجد المغسول بماء الورد ودمع الشكر للحميد، فبكى لأنّ اللحظة فاتته إلى حدّ ما!

ولمّا جمعوا أمرهم لِدَهْم الممالك اللاتينية لتسقط بأيديهم مثل الثمار الناضجة، كان على فرسه كالغرّة البيضاء، فخاض وتقدّم، وحمل واحتمل، ونزف وعرف، وشرب الترابُ دمَه حتى النهاية، فحملوه إلى هناك، ودفنوه بجروحه وعتاده وعجاجه وريحه الزكيّ النافذ الذي عبق حتى حطّ الطير والفَراش على أغصان قَبْرِه، فكيف لا تفرد الفراشاتُ أجنحتَها للذود عن الحيّ المدفون.

تهبط من القدس غرباً باتجاه يافا، على طريق باب الواد، قبل المنعطف القديم المؤدي إلى قرى زكريا وبيت جبرين والفالوجة، وقبل أن تصبح هذه القرى مستوطنات بأسماء وشوارع خلقت جغرافيا جديدة طردت التاريخ القديم. وعلى اليمين، وقبل أن تغادر آخر بيوتات القدس الغربية مباشرة، ومع بداية المنحدر الشديد، ترى جبلا تغطّيه أشجارُ الأحراش المحتشدة التي كسته فروة خضراء، حتى لا تتبيّن من تضاريس الجبل شيئاً! هناك على رأس الجبل المُسمّى «جبل سيدنا علي»، وهو غير «قرية سيدنا علي» الواقعة على البحر شمال يافا، يقبع قبر قديم ما زال يحتفظ بشاهديه وحجارته المصطفّة على شكل مستطيل بائن ومحدد. ويبدو أن سلطات الاحتلال أرادت أن تشقّ طريقاً يقطع القبر، فأحضرت الجرافة لإزالته باعتباره قبر أحد «الأغيار» العرب أو المسلمين! اقتربت الجرّافة بفمها المسنّن الفولاذي العريض، ومشت هادرة بثقة الحديد لإزالته، غير أن الجرّافة تعطّلت فجأةً، فأحضروا مَنْ يصلحها ليكتشف أنها بكامل جاهزيتها، فحاول سائق آخر أن يتقدم بها مرّةً ثانية فتكسرت أسنانها ومخالبها المشرعة!

أحضروا جرّافة ثانية، فأُصيب سائقها بنوبة قلبية، وجاء سائق آخر فانقلبت الجرّافة، وأحضروا بواجر فولاذية محمولة على
ذراع حفّارة ضخمة، فتكسّرت وتحطّمت كأنها أسنان الحليب!
تشاءم القوم من هذا القبر، واهتدوا إلى أن يزرعوا الديناميت، ففعلوا، وانفجرت أصابع الديناميت دون أن يَحدُث ما ينبغي! كأنها ألعاب أطفال صوتية!
وسمع بما حدث بعض المستوطنين، فحضر حشد منهم وهم الذين يكرهون الأرض التي حملت، يوماً ما، عربياً على ظهرها، وأقسموا أغلظ الأيمان بالتوراة والتلمود وكُتب الأنبياء والمشكاة وبملوك إسرائيل أنهم سيذرّون القبر في الهواء، فأعملوا معاولهم، وما إن بدأوا حتى هاجمتهم أسرابٌ من الدَّبْر (الأدبُر أو الدُّبور) والنحل اللاسع، ففرّوا هاربين. وكرروا التجربة ببواجر محمولة بروافع عَنْ بعد، وراحوا ينبشون سطح القبر، وقبل أن يخدشوه التفّت أفعى عظيمة على ساق أحدهم، فولّوا هاربين!
... وما زال سيدنا علي نائماً في قبره، غير عابئ بكل المُخططات التي تسعى لإيقاظه.

والتي كان آخرها أن المُشرفين على شقّ الطريق قد قرروا أن يقصفوا القبر بطائرة «إف ١٦» ليحدثوا حفرة كبيرة مكان القبر.. الذي يُفترض أن تتطاير حجارته وأشلاؤه.

*   *   *

جاء في صحافة أمس أن طائرة حربية قصفت مجموعة عسكرية حاولت العبور من القدس إلى يافا عن طريق مفرق بيت شيمش «بيت جبرين». غير أن المجموعة هربت واختبأت في مقبرة قريبة. ما دفع الطائرة إلى أنْ تُلقي حمولتها حيث يختبئون.

قماط القمح

كيف احتمل ذلك المغربُ رؤيتَها وهي
تخنس في سحر كهفه وتذوب نسغاً
ساخناً رَخِصاً عليه! وكيف لهذا أن
يُبقي عينيه على اتساعهما.. وقد رأى
انسراب دفقات النار إلى رئتيها!
لقد شهدت تلك الروابي امرأةً تخرج
من خرافتها إلى أعراف الرجل الرانخ
بالشهد الغاوي، وإلى عصا الساحر
الذي يغري الأفاعي لتخرج من ذراعيها
إلى خاصرته أو ظهره، وتلدغه بنحلها
ونحيبها المُعْجز الخفيف.

يكتمل البدر، وتبدو أكوامُ السنابل تلالاً تصطف في السهل الواسع كأنها قطع عجين في فَرْش البيدر. والليل نهاريٌّ كأنه أوضح من ظهيرة الغزالة. وأهل القرى على ضفاف أكوامهم افترشوا القش الناعم بعد أيام الحصاد الساخنة والمطهمة بالسنابل التي اجتثوها، فأصبحت كما تبدو جبال خير ورزق وبركة.

والناس الذين يحصدون نتاج حرثهم وبذارهم وانتظارهم جاؤوا يحجّون «مُعزّبين»، كما يقولون، قرب سهولهم الذهبية الممتدة والمتماوجة كأنها بحر من عسل.

يرفعون أربعة أعمدة خشبيةٍ، ويغطونها بقطعة قماش فتصبح بيتاً صيفياً ينامون تحته، ويجمعون أدواتهم وأغراضهم في محيطه. وبعيداً عن كل ذلك، يوقدون نارهم الصغيرة لإنضاج طعامهم أو لغلي الشاي، وكذلك لعمل «البحتية»، ويشددون على إطفاء تلك المواقد خوفاً من أن تصل شرارة منها إلى البيادر، لا سمح الله، وتقع الطامة الكبرى، ما يفسر في هذا الليل المكشوف سماع أصوات الناس وأصوات الليل الموسوسة، ولا ترى ناراً هنا أو هناك.

هو موسم الحصادِ إذاً، وموسم دراسته وتذريته، وفصلِ أكوام القمح عن زوانه، ثم جمعِ ما تبقى من دريس السنابل لإلقائه في ماعون مطحنة القش، ليصبح لدينا أكوام تبن يجمعها المُعَزّبون في أكياس الخيش الكبيرة، فيما يجمعون القمح في أكياس صغيرة يخيطون أفواهها الواسعة بالميبرة والخيوط الغليظة القوية. وبعد شهر تقريباً، ترى البرَّ حليقاً بعد أن كان زاخراً ومحتشداً باصفراره المتطاول البديع.

* * *

كان موسم الحصاد في أوله، وكان عُرْسه في أوّله، أيضاً، واتفق أن اصطحب عروسَه ليُعَزِّبا معاً في موسم الحصاد، ليجزّا معاً حواكير القمح ويأكلا البحتية في ذلك المساء الهانئ، ويبتردا في فضاء المغرب الغائم بالشنانير وأسراب الطيور التي تحتفل بالتقاط حبوبها.

وفي ذلك الحصاد، جلسا بين كومتين كبيرتين من السنابل، ويبدو أنها طابت له بعرقها الخفيف اليانع، وباحمرار وجهها المصطلي بالشمس اللاهبة، فتمطّى فوقها، وعبّ من أنهارها، واندفن في حريرها، وانسرب تحت أفاعيها.

وفحّ مثل الحَمام على سواحلها. ويبدو أن حَبةَ قمح قد علقت من تحتها ببوابة رحمها. ويبدو أن الرجل قد دفع تلك الحبة إلى داخل المرأة بلزوجة ماتعة وعميقة.

*   *   *

انقضت تسعة شهور بالتمام والكمال، وجاء الطَّلْق، واستبشر الأهل بمولود يفتتح بصرخته الندية حياة العروسين. وحضرت القابلةُ وأعدوا الماء الساخن، وانتظروا المولود القادم، غير أن المرأة الحامل التي انبطحت على ظهرها، وفتحت ساقيها، وجلست القابلةُ تمدّ يديها أمام رحمها، لم تصرخ ولم تتأوه، كأن مخاضها مَريَمِيٌّ طهور، وفجأة خرج من رحم المرأة مقدارٌ من قمح نقي مبرور ناصع وشهي وساخن، ثم هَرّ مقدارٌ آخر، تلاه مقدار ومقدار... حتى تراكمت كومةٌ من القمح بين ساقي الوالدة! وما هي إلا ساعة حتى كان المولود قمحاً ينثال من قمته متدحرجاً حتى بدا تلةً لامعة من حبيبات الشهد الداكن!

نهضت المرأة تنفض عنها القمح، وبانت بكامل قوتها، كأنها لم تكن في مخاض وولادة، ثم أحضرت القماط الأبيض وجمعت فيه مولودها القمح.

ووضعته على السرير.

وفي اليوم التالي كان زوجها يحرث البرّ، ويكربل بمحراثه أثلام التراب، وخلفه المرأة حاملة قماط القمح، فتقبض منه حفنةً وتنعفها في الأثلام المحروثة.

وظلاّ يفترعان الأرض ويحرثانها ويبذرانها.. حتى لم تتبق حبّة واحدة قي القماط، وحلّ المساء، غير أن الليل نهاريٌّ ويُغري بِفحيحٍ آخر!

جهاز الجدّة

استيقظت الجمرة، وخرّت بشررها القادح، وسقطت في قعر القلب. وحضرت الشهوة الناغرة تشعّ من تحت الجسد، فأشرقت، وتعرّت، وأعجبها ما تكوّر أو انحفر، وأمتعها تمسيد النار على الماء البارد.

وشيئاً فشيئاً صرخت أصابعها وسالت، وتناثرت أهواؤها وغامت، وخمشت الهواء واقشعرّت، وكانت بأصابعها تحوّم على سواحل الرعب وحافة النهايات.

وربما لم تدرك، من قبل، أن ثمة حداثة في التاريخ، فقد كانت جدّة جدّتها تقضم الفراغ، وتزوغ في بئر الذروة.

لم تتغيّر هذه المرآة منذ قرن تقريباً، كانت هي والنمليّة والصندوق المرصّع بنجوم وأشرطة النحاس جهاز الجدّة، أُمِّ والد هذه البنت التي احتلت هذه الغرفة، وقد أخذت المرآة مساحة الجدار الموازي لبوابتها، وتنتصب على بعد شبرين من السرير الجديد الذي أحضروه لهذه الفتاة، التي أعجبتها المرآة بصفائها واتساعها ووضوح صورتها. تضجر البنت، وتلقي الكتاب على السرير، وتنظر من الشباك، وتزداد مللاً، فالأشياء كما هي، والمشاهد لا تبرح أماكنها، فتنظر إلى المرآة وترى قوامَها الفارع، فتُعجب بجسدها، فتخلع ثوبها وما تحت الثوب، حتى تقف كما ولدتها أمها أمام صفحة الزئبق الرائقة، وتتحسس مفاتنها، وتحضن بكفّها الرّمان والمدمع الساخن، وتذرع بيدها ببطءٍ على خصرها وصولاً إلى ساقها، وترتخي على سريرها غارقة في رهام العَرَق الدافئ. يا إلهي، لَمَنْ سيكون هذا البلور الإلهي؟! ومَن سيصهره تحت فكّيه، ويعصر أعنابه في كؤوسه المترعة؟ لعلها كانت تنتظر الفتى النسر، أو الحصان المسحور، أو لعلها تنادي صاحب السيف الراعد الذي يبحث عن الفتاة المطرّزة التي وصفتها له العرّافة.

لأنها ستكون سيدة القصر المُضاء بالأقمار الثلاثة، والمحروس بالجواد الكميت.

* * *

تستيقظ الفتاة في هدأة الليل المُطبق، فترى صوراً تتحركُ على سطح المرآة، وتحدّق فترى المرآة تعود تدريجياً لعرض ما انطبع على وجهها.. كأنها تُقلّب صفحاتها المطوية تباعاً. تتجمّد في مكانها، وعيناها معلقتان على المرآة التي تتذكّر كل أولئك الذين وقفوا أمامها، وتمرّ الصور سريعةً خاطفةً.. كأنها كاميرا تعيد بشرائطها كل ما صوّرته منذ مئة عام تقريباً. لقد رأت الفتاة كل ما يُذهل من أفعال وأحداث، خصوصاً تلك اللحظات الحميمة التي كانت تعجّ بها الغرفة بين الأب والأم أو الجدّ والجدّة، وتلك الحماقات اللذيذة التي كانت تقترفها عمّتها أو أمّها، وتلك الغرائب التي فعلتها الوجوه والأجساد التي وقفت أو مرّت أمام هذه المرآة! ضحكت من تلك الصورة التي رأت فيها والديْها أو جدّها وجدّتها، ولم تستطع أن تستوعب ذلك الفارق الهائل بين الوَلْدَنَة والشقاوة والخفّة التي أظهرها أبوها وبين تلك المهابة

التي تحيطه كالهالة الثابتة!!

وعمّتها! آهِ يا عمّتي النزقة، وآه يا جدّي الوَلهِ الصبي المتخلِّع!!

... وفجأة رأت فتاةً تتعرّى ببطءٍ شديد، ويبدو أن هذه الصورة هي أول ما رأته المرآة!! وحينما دقّقت النظر في ملامح تلك الصبية المشوقة الممتلئة، رأت أن لها ملامحها.. كأنها هي بلحمها وشحمها.

* * *

استيقظ أهل البيت على صوت ارتطام حاد، فهرعوا مسرعين مفزوعين إلى غرفة البنت، فوجدوا المرآة قد تحطّمت بفعل المزهرية التي ألقتها الفتاة عليها، فتشظّت وانهارت!

ضحك أبوها، وأسرّت أمُّها ضحكتَها، وطلبا من ابنتهما أن تعود إلى نومها.

البوابة

ثمة متسع للكلام. ولا بُدّ من رقبة الديك حتى يظل قادراً على الصياح، ولا بُدّ من سكين المتنبئ حتى يشخب دم الطير على خدّها، ليعود بكامل ألوانه المزركشة بعد أن يرقص بقشعريرته، ويلف ويدور حول نفسه ذبيحاً طازجاً معفّراً بإكليله الأحمر المنعوف الساخن.

ولا بُدّ من تلك الهّزة العميقة التي تنشر برقها المتشعّب في الأوصال عند كل فجيعةٍ أو ذكرى، أو جَمال يبطش، أو دمعة رجراجة كاوية، عندها تحس أن أحشاءك تغوص بعيداً، كأنك على عتبة التحوّل إلى كينونة أخرى.

ولا بُدّ من عافية الصراخ والبكاء والضحك المجلجل والشبق، والذهاب إلى آخر الموجة، أو إلى كهف الغابة المسحور. ولا بُدّ من عَرقِ الخطيئة ونَهمِ اللذّة والشذوذ، حتى يكون للحسرة طعمها الجليل، ولا بُدّ من السجود العميق والصوم والتمسّح بأثواب النور، حتى يخفّ القلب ويجنّح مع النجمة اليتيمة الواعدة. باختصار،

لا بُدّ من كل شيء حتى نسحب أوراق الجنون من الوردة الريّانة المحتشدة بالرقّة والشهد والرهام الرقراق.

وعليه، لا بُدّ من إدراك البوابة العصماء المنتصبة، على صدئها، منذ عشرات العقود، نمّر عنها كأنها قضاء فائت أو قدر ثابت، دون أن يسأل أحد عمّا خلفها، أو مَنْ أنشأها، أو معنى وجودها، وربما لم يجترئ أحدٌ على سبر غورها منذ قيامها، على اعتبار أن السؤال عن وجود جبل أو نهر أو صخرة هو ضرب من السذاجة والغباء والجنون! لكنها ليست جبلاً أو تلاً، إنها بوابة خشبيه عملاقة، تقف بين عمودين حجريين، وتحت قنطرة مقوّسة حجرية، وسط ساحة البلدة، هكذا كأنها كانت بوابة أحد البيوت أو الخانات أو المورستانات أو الجوامع، وجهها مثل قفاها؛ خشب سميك مثبّت بمسامير حديدية غليظة مدقوقة الرأس. والعجيب أنه لا ظلّ لهذه البوابة، كأنها تقف في اللامكان، أو كأن ظّلاً عملاقاً شاسعاً يغطّي الساحة المظللة بكائن لم ندركه بعد. والأغرب هو أن البوابة دون أُكرة أو يد تفتحها بها دفعاً أو سحباً، فهي، كما هو ظاهر،

لوحات متّصلة ومركّبة على زوايا ناتئة ومشدودة بسيور حديدية رقيقة، خالطها الصدأ، لكنها لم تفقد حدّتها أو استواءها المالس.

وإذا كانت العواطف تُضْعِف القوة، فلا بُدّ من الحزم والتجرّد التام حتى أفكّ لغز هذه البوابة التي لا يحطّ عليها طائر، ولا يتكيء عليها واقف، حتى المطرُ الذي يصيب كل شيء لا ينزل عليها، كأنه يتحاشى السقوط فوقها. وربما لم يصدف أن اصطدم بها سائر، حتى ظلّت كما تبدو متماسكة سليمة لم يفختها حجر، ولم يخدشها إظفر أو سِنان. ومن المؤكد أنّ أحداً لم يتبأر أو يدقّق في تلك الرسوم والأشكال والحروف المحفورة، بدقة بالغة، على صفحة القوس الحجري، ولم يفسّر أحد تلك المقرنصات البادية أعلى العمودين الحجريين المصقولين بنعومة وأناقة ودقّة تدلل على أن البوابة أقيمت في عصر باذخ متقدم، لتكون نجمة الباني الذي سيتبعها أو يدفع الناس للانطلاق منها أو نحوها، ولكن، لماذا ومتى وكيف ومن أين؟ لا أحد يدري! كما أنّ الناس تهيّبوا، على ما يبدو، من أن يوقدوا ناراً بالقرب من البوابة،

ولم يجازف واحد بأن ينطح البوابة بعارضة فولاذية أو خشبية أو بحجر ضخم، وآثر الجميعُ أن يمرّ عنها أو بالقرب منها باحترامٍ وهدوء وسلام. وظلّت البوابة على هذه الحالة، حتى يوم أمس.

* * *

استيقظ الناس فلم يجدوا البوابة ولا المصطبة الحجرية التي كانت تقف عليها برسوخ! كان كل ما يظهر تراباً مستوياً، هو امتداد الأرض التي شقّ وسطها المشاةُ طريقهم، حتى إذا وصلوا البوابة داروا نصف دائرة ليواصلوا الطريق. أما الآن، فلا بوابة ولا أعمدة أو أقواس، ثمة فراغ كامل، يمكن معه أن يظل السائر ماشياً دون دوران، وللتراب أن يتلبّد تحت أقدام الذارعين ذهاباً وإياباً ذلك الطريق الجديد. وربما كان متوقعاً أن يجترح الناسُ غير تفسير، ويهجسوا بغير فكرة تبرر اختفاء البوابة! فاختلفوا وتجادلوا وذهب كل منهم إلى سبب يراه وجيهاً أو كافياً لأن يزيل تلك البوابة ويمحو آثارها. فمنهم مَنْ قال إن اختفاءها إنذار من السماء ليكفّ المسرفون عن الفحشاء والمنكر، ومنهم مَنْ أشار إلى إمكانية قيام القرية المعادية المجاورة بسرقتها ليلاً بخفّةٍ تستطيعها!

ومنهم مَنْ أكّد أن الطبيعة قادرة على إحداث الكثير من الظواهر، وأن الإنسان لم يدركها جميعها، وبالتالي فإن اختفاء البوابة يجب أن يقودنا إلى البحث عن الظواهر الطبيعية غير المُدْرَكَة، ومنهم مَنْ همس قائلاً إن الحاكم أخذها ليجعلها باباً لأحد قصوره الكثيرة المتخفّية في الغابات ووراء الجبال، ومنهم مَنْ أوضح أن طيراً هائلاً التقط البوابة بمنقاره الضخم وراح بها في الفضاء، ومنهم مَنْ قال: لم تكن هناك بوابة أصلاً، عن ماذا تتحدّثون؟!

.. وخفت صوت الناس، وانشغلوا، يوماً بعد يوم، عن ذكر البوابة، حتى لم يعد يذكرها أحد سوى الذين أطلقوا اسم «البوابة» على الطريق الذي يقطعها، دون أن يتوقف ذاكر اسمها عند أصلها أو قصة اختفائها.

ونسي الجميع البوابة وأمرها. ومرّت الشهور والأيام، وبعد عقدين أو يزيد، لاحظ أحدُ المعلمين أن تلميذاً صغيراً يرسم بوابة على كرّاسته، وتكاد الرسمة تكون صورة فوتوغرافية عن البوابة التي اختفت.

باقة البسطار

لم يكن على موعد مع الدم والرصاص أو المقتولين القتلة! لأنه على موعدٍ دافئ وخَضِلٍ مع ضميره الوديع وقَسَمه ورسالته، فقلبُه بمساحة الدنيا التي ينبغي ألاّ تبحث عن اللون أو الختان أو اللسان. وهو يبحث أبداً عن الأقرب حاجةً لجرعة الحياة، هكذا فعل جدّه صلاح الدين، وهو وريثه الأول. والأبهى أن الرجل لم يفتش في المشهد المغموس بالنجيع عن هوية الأنين، فامتدت يده إلى المبضع ليبعث الحياة ويصونها في كل آدميّ. لكنه جزاء سنمّار، الذي لا يكون إلاّ من الذي أعاد إنتاج كلِّ أشكالِ القمع عبر التاريخ، وطوّرها لتحمي وَهْمَه المريض من الاندثار أمام سطوع الحقيقة. أما الورد الجميل، فيختنق في يد البندقية لأن حاملها قد جعل البسطار مكان قلبه.

كانوا قد رصدوا تلك الدورية الراجلة، حتى تمكنوا من الانقضاض عليها، فقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا الباقين، وغنموا بنادقهم، واختفوا في الليل.

خاف الجيران من ردة فعل الجيش الذي سيأتي ليخلع الأبواب ويقتل الشباب على غير هُدى، فأطفأوا أنوارهم، وأغلقوا شبابيكهم وأبوابهم، وتكوّروا على أنفسهم مرعوبين.

كان الطبيب عائداً من المستشفى، فأوقف سيارته أمام بيته، ورأى بأُمِّ عينه جثث الجنود النازفين، فهرع يتحسسُ الأحياء منهم، وأسرع إلى حقيبته وراح يجري ما أمكنه لإسعاف الأحياء منهم. وجاءت الدوريات تزعق وتولول، فحمل جنودها القتلى والجرحى، واعتقلوا الطبيب بعد أن داسوا رأسه وحطّموا وجهه، وكادوا يقتلونه، على رغم إدراكهم أنه طبيب قام بخدمة جليلة لزملائهم تفرضها عليه أخلاقه ومهنته.

بعد شهور وقفت دورية مليئة بالجنود أمام بيت الطبيب، ونزل منها جندي يحمل باقة زهور، فقرع الجرس، وبعد لحظات خرج إليه الطبيب، وسأل الجندي: ماذا تريد؟ فأجابه الجندي: أنا من الذين قمت بإسعافهم تلك الليلة.

وجئت أشكرك على فعلك الإنساني، فهل تسمح لي أن أقدم لك هذه الباقة وأشكرك.

قال له الطبيب: أنا آسف، لا أستطيع أن أتقبل ورودك، وما فعلته أنا كانت تمليه عليّ إنسانيتي.

استغرب الجنديّ، وقال للطبيب: لكنني أجيئك زائراً شاكراً وأنت تغلق باب دارك أمامي، وكما ترى أنا تركت سلاحي في الدورية، فقال له الطبيب: عندما تخلع بزّتك العسكرية، وتأتي في سيارتك الخصوصية وحيداً مُطمئناً، سأفتح لك الباب.

وأغلق الطبيبُ الباب، فألقى الجنديُّ باقةَ الورد تحت بسطاره، وقفز إلى الدورية التي راحت ترعد وتولول وتطير.

ابتسامة المُلصق

لعل نبيّ الجُبّ المحسود قد تناسخ وجهاً صبوحاً وأحلاماً وسنابل وعروشاً، وظلّ النبي الوسيم على جوّانيّته الملائكية البعيدة عن الطين والعطش وكيد السكاكين. لقد أعطى عمره غير منقوصٍ حليباً كاملاً حلواً للبلدة والثوابت وسراج الشهداء الساطع، حتى شخب شريانه بفعل قذيفة عمياء، فتناثر لحمه على الجدران بقعاً تشعّ بشموسٍ تدور مع الحروف حول الأناشيد والضفائر الصغيرة والصباح المجيد.

يعتبر توفيق أبو شرار النموذج الأكثر كمالاً وجمالاً للشاب الخلوق النقيّ المناضل دون ادّعاء. وأبو شرار لم يكن يتقن إلاّ أن يبتسم أو يعمل دون كلام. أما اليوم، فقد مرّ على استشهاده خمس سنوات، بعد أن قصفت طائرةٌ سيارتَه وهو عائد إلى بيته! وإثر استشهاده الصاعق، قام شباب التنظيم وطبعوا مُلصقاً يُعلن نَعيه، ويبشّر بأنه راح إلى الرفيق الأعلى مع الصديقين والأنبياء.

والواضح أن الملصق الخاص بتوفيق أبو شرار، المفرود على الحيطان والبوابات، والمُعلّق على الأعمدة والجدران ولوحات الإعلانات، ما زال يحتفظ بألوانه، وبصفاء صورة الشهيد فيه! بل إن الأطفال السائرين في الشوارع أو المُمسكين بأيدي آبائهم قد لاحظوا أن الصورة تبتسم لهم! فظنّ الأباء أن أبناءهم يتوهّمون!

وتكرر الأمر، فما إنْ يمشي ولدٌ أو صبيٌّ وينظُر عَرضاً، وتلتقي عيناه بعيني الشهيد، حتى يبتسم له الشهيد كأنّه يردُّ التحية، ولكن ليس بأحسن منها لأن البادئ أكرم!

راح الناس يمعنون النظر في ملصق أبو شرار، ويطيلون التحديق فيه، فتتعلق نظراتهم طويلاً على صفحته المشرقة، ولا يدرون كم مكثوا ناظرين، ثم يثوبون إلى حالهم، ولم يلحظوا تلك الابتسامة التي يتحدّث عنها الصغار.

أما الأولاد والفتيان، فتراهم في شوارع بلدتنا دائمي الابتسام والانشراح، إنهم يبادلون الرجل الشهيد ابتسامته!

وحتى هذه اللحظة، لم نستطع، نحن الكبار، أن نردّ عليه كما ينبغي!

أولادُ اللّكع

عندما يحرقون الشوك، يذهب

الزهرُ في اللهيب.

اللّكع الجاسوس الحقير، الذي هرب في الشّهر الأول من تلك الانتفاضة، لم يتجرّأ على الانتحار لينهي مأساة أبنائه الذين تركوا مدارسهم لابتعاد أترابهم عنهم، والنظر إليهم بشُبهةٍ ودونيّة، حتى المدّرسون كانوا أكثر فظاظة معهم لإثبات وطنيتهم! وصاحب الدكان كان يتردد قبل أن يبيعهم ما يطلبون، وكانوا كالمصابين بالجذام، يتحاشاهم الناس ويحتقرونهم، وكل ذلك لأنهم أبناء العميل! هرب العميل خوفاً من أن يُلقيَ الشبانُ القبضَ عليه، ويتمَّ التحقيق معه والقصاص منه. هرب وترك أُسرته تنتفض رعباً وهلعاً وخوفاً وجوعاً. في الليل تكون البلدة غارقة في عتمتها الثقيلة وسكونها العميق الرهيب، ولا يقطع صمتها إلاّ صوت دوريات الجنود ورصاصهم المتقطّع المفزوع. والشبان يذرعون البلدة في الليل حتى تكون تحت إمرتهم وسيطرتهم، يكتبون على الحيطان ما يشاؤون مِن شعارات وتعليمات، ويطهّرونها من العملاء الذين يأخذونهم من أحضان أزواجهم أنصاف ميّتين. واللّكع الذي يُعتبر الجاسوس الأكثر خطورة في البلدة ترك زوجه وابنتيه وابنه، وهرب!

وكان متوقَّعاً ألاّ يتعرض لهذه العائلة أحد من الشبان، على اعتبار أن كلَّ شاةٍ معلّقةٌ من عرقوبها. وعلى أساس: «ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى». ثم إن عائلته لا ذنب لها سوى أن القدر جعل ربّ هذه الأسرة منبوذاً خائناً. وها هي تُضرَسُ بفعل حُصْرمه المُمّض الخانق.

*   *   *

... وجاء ملثّمون لعلهم قفزوا من فوق سور دار اللّكع، وطرقوا الباب الداخلي، ودخلوا بأقنعتهم السوداء شاهرين مسدّساتهم. فتجمّد الدم في أبدان أهل الدار، وأمروا البنتين أن تخرجا معهم للتحقيق معهما! فخرجت البنتان وهما تنتفضان، وغابوا جميعاً في العتمة!

*   *   *

لا يستطيع كائنٌ مَنْ كان أن يتدخل أو يسأل أو يرحم هاتين الصبيّتين حتى لا تلحقه الشبهة القاتلة. غير أن شباناً ملثمين آخرين حضروا بعد تلك الحادثة بثلاث ليالٍ ومعهم الصبيّتان كأنهما جثتان هامدتان،

وطلبوا من أُمّ البنتين ألاّ تسمح لأيِّ أحدٍ ملثّمٍ أو غير ملثّم أن يأخذهما أو يتدخل في شؤونهما، وأوضحوا للأُم أن الملثمين الذين خطفوا البنتين هم عملاء خونة، جعلوا أنفسهم ملثمين ليغتصبوهما.

*   *   *

وقبل أن يقفز الملثّمون الوطنيون من فوق سور البيت، قالوا للأم: إن العملاء الذين اختطفوا ابنتيكِ كانوا يعملون في خليةٍ واحدةٍ مع زوجك اللّكع، وهو الذي نظّمهم!

«شارع أبو رباب»

كان يضع بين الحجرين الثقيلين القمحَ والقهرَ، ويطعم الناس. وكان بإصبعه يرسم خارطةً تشبه الخنجر على غبار الحجر، ثم يظل صامتاً مُعلّقاً هناك خلف الصخرة حتى يفرغ كل البندقية في الليل المريب، فينزّ لزوجةً دبقةً تشبه الوحل أو وجوه الموتى. لقد كان أعداؤه مخلوقات قامت من كابوس طويل بشع، وأرادوا أن يسرقوا أحمال القرى ورموشها الممتلئة، فنهض برقاً من جوف الغيم، فتحطم المرعب البهيم.

أبو رباب المربوع الدحبور، كما يطيب لأهل البلدة أن يصفوه، يشبه مطحنته التي كانت قطعة منه، أو هو قطعة منها. فمنذ هاجر أبو رباب شاباً إلى بلدتنا استطاع أن يشتري هذه المطحنة التي أُقيمت على فوهة البئر العميقة، وجاءته أحمال القمح والكرسنّة والشعير، فبدّل أبو رباب الحُقان القديم والبدّ والقشاط والدواليب، ورفع سقف المطحنة بأعمدة جديدة، وبنى سدّة أكبر من سابقتها، وافتتح مرحاضاً جديداً خلف المطحنة، ورفرافاً خشبياً يردّ عواصف المطر، وصارت الفتحة الحجرية وجاقاً لغلي الشاي أو مَدفأةً تجعل المطحنة فُرناً في الشتاء.

وأبو رباب سمين ممتلئ، لا يبدل الفانيلة البيضاء التي تستر أعلى جسمه، وسرواله الفضفاض الذي يتدلى من وسطه قيطانه الملفوف المتين، ولا تراه إلاّ مُغبّراً بدقيق الطحين.. الذي كساه طبقةً بيضاء تشمله من قدميه الحافيتين إلى طاقية رأسه المغزولة المُخرّمة. والمطحنة تعمل موسماً واحداً في السنة، يكون بعد الحصاد مباشرةً، ويمتد أسابيع معدودة، ثم يركز أبو رباب ربابته، فينفض الغبار عن مطحنته ويغسلها ويشطفها ويشحّم دواليبها ويكنس سدّتها وممرّاتها ويصلح أمرها.

وعلى أبواب الشتاء يُغلقها حتى يحين الموسم الآتي، حتى لا ترى شبحاً أو إنسيّاً أو تسمع صوتاً في المطحنة مُحكمة الإغلاق، باستثناء شلّة أبي رباب الذين يتسامرون فيها طيلة ليالي الشتاء الطويلة!

وبعد نكسة العام ١٩٦٧، خفّ عمل المطحنة، فقد توجّه الناس إلى العمل في مصانع الاحتلال ووُرَشه وحقوله التي نهبها، ولم يعد أهل البلدة يهتمون بالزراعة وما تنتجه، فقد أغرق الاحتلالُ الأسواق بما لذّ وطاب، وبأسعار زهيدة، حتى يدفعهم ليصبحوا مستهلكين لمزروعاته وعاملين في مشاغله .. على طريق أن تبور الأرض، فينقضّ عليها، ويقيم عليها مستوطناته ومعسكراته، وقد كان ذلك للأسف!

وفي مطلع العقد السابع المنصرم، كنا فتياناً نلهو ونتراكض في مسطاح المطحنة، وهي أرض واسعة جعلناها ملعبنا الأثير، ويتجمّع فيها كل أولاد البلدة.

وجاء رتل من الدبابات وقافلة طويله من العربات والدوريات والمجنزرات، فهربنا، ورأيناها تُطبق حول المطحنة.

وما هي إلا ساعة أو أقل حتى خرج أبو رباب مقيّداً معصوب العينين يقوده الجنود إلى إحدى الدوريات، وانطلقوا.

* * *

ودوّى خبر موت أبي رباب في البلدة، وقام المختار وتسلّم جثته من الحاكم العسكري الذي أمر بدفنه فوراً! لقد استشهد أبو رباب تحت التعذيب أثناء التحقيق معه!

ظلّ ركام المطحنة شاهداً للعيان بعدما نسفها الجنود إثر اعتقال صاحبها بأيام. وحينما شرع مجلسنا البلدي، مؤخراً، بشقّ شارع من وسط المسطاح مروراً بالمطحنة عثرت الجرافات على صناديق مُغلقة، ردمها أحدهم في تلك البئر التي كانت المطحنة تنتصب فوقها، فتحوا الصناديق فوجدوا بنادق صدئة تهرّأت وكلحت، ووجدوا مُغلّفاً من النايلون فيه أوراق بالية، وحينما فردوها ليقرأوا ما جاء فيها، وجدوا رموزاً وحروفاً مُبهمة. وقبل أيام افتتحوا الطريق، فأطلق المجلس البلدي عليه اسم شارع المطحنة، لكن الناس ودون اتفاق أطلقوا عليه: «شارع أبو رباب».

الخالق الناطق

روح أخرى من بُتول البلاد، مخضتها بعد أن تم الحمل بين الشهيد والشهيدة مع وقف التنفيذ، وهي روح تشقّ بصراخها العدمَ العاقر، حتى لا تنتهي الحكاية بنفخةٍ حادةٍ مدمّاةٍ من بوق الراب الوحشي.

هي اجتراح آخر على غزْل خيطان الخيال رايةً لها ظلٌّ وخفقان. وهي كلمة السرّ التي لا يفهمها إلاّ أولاد قريتنا الذين توالدوا من لقاء الشعاع بالنهر، والعاصفة بالحديقة، والحجر بالحرف العبقري.

وثمة ولادات على الطريق!

لقد مات! ودفنوه! وجاءت النسوة اللاطمات النائحات المولولات وذهبن، والمرأة صامتة في سوادها، كأنها تمثال مقدود من حزن ثقيل، لقد أشفقن عليها؛ فلم يمرَّ على زواجها شهران وها هي تترمّل وهي في أتمّ أعذاقها وانشراح حقلها، ستذوّي يا ويلي وتموت بحسرتها!!

* * *

ظلّت في بيت زوجها الشهيد، ورفضت أن تعود إلى بيت أهلها، وصارت تغلق على نفسها غرفتها، وتنام في موعد نومها! وحماتها ترقبها في صمت وحيرة واحترام، وازدادت حيرة حماتها عندما كانت تراها تتجمّل وتلبس مباذل النوم الشهيّ، كأن زوجها بكامل حضوره الساخن على ضفاف سريرها!

* * *

بعد شهور كانت تتأخّر في يقظتها، كما كانت أيام عُرْسها الأول، وتخرج متكاسلةً كأنها ذهبت بعيداً في مشاوير الجسد واللهب الكاوي، وتدلف إلى الحمّام، تماماً كما كانت في أيام زوجها!

* * *

بدأت حماتها تسمع كركرةً ونحيباً خافتاً وضحكاتٍ مجلجلةً حادةً جذلةً تندُّ عنها،

كأنّ أحداً يداعب أعرافها المتوهّجة، فتخاف ويصيبها الوجل والفزع من أنّ أحداً يدخل من النافذة إليها!! ولكن هذا مستحيل لأن الشباك مغلق بشبكة الحماية الفولاذية، وليست هذه المرأة من تلك النساء اللواتي يسقطن في ابتذال الرغبة الناتئة، ولكن ما الذي يجري؟!

*   *   *

سألتها حماتها عن غرائب لياليها، فكانت تعتذر، وتُشعرها بأنها تتوهّم ربما! وبعد شهورٍ كانت دهشة الحماة قد بلغت حدّ الموت عندما أجابتها المرأة العروس بأنّ ما تسمعه صحيح، وبأن زوجها الغائب قد طلب منها أن تُعدّ له ذلك الطبق الفوّاح الحلو الذي كانت تعدّه أمه لإخوته الصغار. لكن الحماة وقعت في ذهولها، وصرخت في وجه المرأة: لكنه لم يكن يحب الحلوى! وكان يفضّل الحرّيف اللاذع، فهل تريدين أن أُصاب بالجنون؟ أم أنك فقدت عقلك، وتريدين مني أن أصبح مثلك مجنونة؟

*   *   *

لقد أسرّت الحماةُ لوالدة المرأة بما سمعته من كنّتها،

فذهبتا إلى المشعوذة الشيخة لتفتح لهما مغاليق هذا الحَدَث الغامض، فطمأنتهما بأن جنّياً قد تزوج الكِنّة، ويحتاجُ الأمر إلى ما يحتاجه لفسخ الجنيّ عن جسد المرأة.

* * *

لكن الحال على حاله، والمرأة تزهر كل صباح كأنها ترتوي بعطر الشمس، فتتورّد وتزداد ألقَاً وحياة. وربما سمعوها تقول إنها حامل! فقد فاتها موعد الدم، وباتت تشتهي ما كانت تنبذه من ريح الطعام! وبعد تسعة شهور بالتمام والكمال تفتح المرأة ساقيها، وتجيء القابلةُ لإخراج الجنين، فتمسك برأسه وتسحبه، ولا ترى ما تمسك بيديها، فيصيبها الهلع، وتهرب، وتسمع النسوةُ صرخةَ ولادةِ طفل، لكنهن لا يرين شيئاً! ويدفق الحليب في أثداء المرأة، ويمتلئ البيت ببكاء رضيع.. وما من رضيعٍ سوى لفّةٍ بيضاء مدورة على فراغ واضح.

* * *

ومرّت ست سنوات على تلك الحادثة التي أكد خلالها الناس أن المرأة قد ولدت ابنَ الجنّي، غير المرئي،

الذي تزوّجها، لكنهم باتوا لا يعرفون ماذا يقولون. فقد بدأت ملامح الطفل تظهر شيئاً فشيئاً، والمؤكّد في الأمر كلّه أن الطفل يشبه أباه الشهيد «الخالق الناطق» كأنه نسخة منه.

وبالرغم من أن أُمه كانت تناديه باسم أبيه، أو هكذا كانوا يسمعونها تناديه، فإنهم كانوا يسمعون صوتاً طفولياً يجيب أُمَّه، غير أن بعض ملامحه كانت تُظْهِر جلياً وتُري كم هو شبيه والده الشهيد، إلا أن تلك الملامح كانت تغيب تماماً، ولا يرى الناس طفلاً أو جسداً.. بل صوتٌ صغيرٌ يكبر في الأنحاء.

امرأة النجوم

لم يصدّق الفتى الريفي إلاّ ما قاله الشيخ ومواقد البيت ومارسُ الكلمنتينا المعطّر. وعلى الرغم من الأفلام ورؤية صدر ابنة المدينة، فإنه ظلَّ واحداً من حكايات الديوان الدافي.. والعامر بحواضر العقود والخوابي وخلاصات الرجال المجرّبين الكبار! ومع أنه اقترف الكثير من البراءة والضلالات، وتنفّس في الطائرات، وغفا في المترو، وصدّق الكثير من الخرافات والقصص وادعاءات النساء، فإنه لم يستطع تصديق ما لم تقله له أمّه، أو أن هذا الأمر سيحدث ذات يوم!

الأبراجُ منازل الإنسان، اختلف حولها الناس بين مكذِّب ومصدِّق، وتباينت الآراء حول تأثيرها فيهم، ولعلهم توافقوا على أن مواليد البرج الواحد يتعرّضون للمناخ والغذاء والتأثيرات المحيطة ذاتها، عدا أن التخاطب المغناطيسي بين الكواكب وتأثيرات الجاذبية والمدَّ والجزْر كلها تؤثّر أيضاً، وبالتالي لا داعي للإنكار، والأجدى تجاوز كل النظريات التي تقول باقتصار تأثير المجتمع بكل حمولاته على أفراده للوصول إلى البحث عن سهام أخرى تصيب المخلوقات وتفعل فعلها فيها. وقد تكون صاحبتنا التي نتحدث عنها هي من أكثر الناس انشغالاً بأمور الأبراج، وأكثرهم بحثاً وتنقيباً في حقل النجوم والكواكب والمجرّات وصِلتها بالأرض وما يدبّ عليها، حتى أصبحت محجّاً في التبصّر والاستشراف والنبوءة ، تتحدث عن مزايا هذا البرج أو ذاك، وعلاقته بالأبراج الصينية، مروراً بكل ما قيل في هذا وذاك. بل إنها تبني علاقاتها مع مَنْ حولها استناداً إلى أبراجهم وما تقول لها النجوم عنهم، فتراها متطيّرة حيناً ومنشرحة أحايين أخرى، وبالتأكيد فإنها أدرى البشر ببرج العقرب الذي تنتمي إليه، ويستطيع الرائي أن يعرف ذلك من المُعلّقة التي تترنح على صدرها،

وهي عبارة عن قطعة فضيّة اتخذت شكل العقرب، ولها إطار دائري يحكمها. والواضح أنّ صاحبة المعلّقة لا تخلع هذا العِقْدَ من عنقها، حتى أنك تعرفها من هذه الميدالية التي صارت حرْزها وتعويذتها وهويتها في الحياة.

* * *

ماتت صاحبة الأبراج! وحينما كشف الطبيب على حالتها ليتبيّن سبب الوفاة لاحظ عقرباً عَقَصها في صدرها فماتت، تماماً كما فعلت أفعى كليوباترا. والملاحظ أن العقد الذي كان يتدلى على صدرها وجدوه بسلسلته وإطاره، غير أن مجسّم العقرب الفضي قد اختفى.

* * *

كانت تقول: إن الروح العليا غاضبة من ذوي الساقين، وإن زاد غضبها سيتعكر الماء، ويهجر السمك، ويجفّ الضرع، وينتشر الظلام والآفات.

وتردف: لقد بدأ الخطأ عندما توقّف الإنسان عن الاستماع لذوي النور وذوات الأربع والأجنحة والقوائم والجماد.

وتعبّر عن استغرابها بترديد: نحارب الأرواح

والنجوم كأنها مَدينةٌ لنا بِدَيْنٍ كبير، أو أنها قاصرة ونحن آباؤها!!

وعندما يردّ عليها أحدهم بأن الحكمة والقوة والمستقبل تأتي من داخل المرء، وأن المركز موجود في كل منا، والسرّ كذلك، كانت تجيب: هذا يوم غير مناسب للكلام والجدل، ولا تعقّب، وتصمت، ثم تستدرك: يا ناس، نحن أكثر من محض بشر، والأشياء من حولنا لا تمر علينا مرور الريح فوق الماء، لكنكم أقرب إلى التراب على ما يبدو!

أينما ولّيتَ وَجْهَكَ

الفصاحة عند المؤرخ فحولة، وعند الذين سقطوا فوق النطع شهادة ينقشون حروفها على أوراق اللهب السرمديّ. والفصاحةُ عند المرأة، ربما، تعني الإباحية، كما يقول بعضهم. لكنها، أي الفصاحة، عند مَنْ يرى ويسمع هي التكلُّمُ بما ينبغي أن يُقال أو يكون!

المتحف عدة طبقات، افتتحوه بعد أن رمّموا جدرانه وأعادوا بطانته ودهانه، وجدّدوا أبوابه ونوافذه، ووضعوا كل ما جمعوه من جرارٍ وحليّ ومجسّمات وملابس وأدواتِ حرثٍ وطعامٍ وفخّار، وحفظوا بعض القطع في خزائن زجاجية مغلقةٍ، وعلّقوا على الجدران سيوفاً وتيجاناً وما يشبه العصيّ، وأشاروا على لوحات، وبغير لغة، أنه يُمنعُ التدخينُ وتناولُ المشروبات أو اللمس. وهبطنا إلى الطابق الأرضي، بل السُفلي الذي تنزل إليه عبر درجٍ حجريٍّ لتجد نفسك في بهوٍ مستطيلٍ يضم غُرفاً صغيرة كانت لها أبواب حديدية ناتئة وغليظة، ويتدلّى من الجدران والسقوف غيرُ سلسلة حديدية، وقالوا لنا: كان هذا معتقلاً، وكان يطلق عليه سجن الحديد! فوقَعَ اللفظُ على رؤوسنا فأصابتنا القشعريرة، وشعرنا بالاختناق، وضاقت صدورنا، وأحسسنا بالغثيان، وحلّ صمت ثقيل مخيف، ومن حيث لا نريد أن نلفت الأنظار، رجعنا إلى الدرج الحجري لنخرج من هــذا القبو المريع، ولعلّي كنت بطيئاً في مشيتي أتملّى الجدران والقيود، فتـــراءت عشرات الأجساد المقيّدة بفظاظة تتهدّل واقفة وهـــي مصلوبة من ســواعدها بجنازيــر معلّقـــة في البعيـــــد،

وكانت شبه عارية، وقد جفّ الدم على أنحائها، وقبل أن أصعد تماماً إلى الطابق الأرضيّ، كانت الأجساد المخنوقة تبعث حشرجة مكتومة في المكان.

قبيلة الجنون

الجنون، بصورة عامة، هو حالة من الخلل الوظيفي للعقل. والجنون مستويات، يتعلق كل مستوى بالقدرة العقلية العامة للدماغ. والجنون قصور في المدرَكات والوعي، وهو، أيضاً، هبوط إلى «الأسفل» ووعي للحاجات البيولوجية والجسمية، فقط.

وثمة جنون آخر؛ هو حالة من الاهتمامات المركّزة والمحدَّدة؛ بمعنى أن المجنون هنا هو ما يرى في الأشياء والظواهر، وما بينهما من روابط، ما لم يره الإنسان العادي، تحليلاً واستنباطاً واستنتاجاً. والجنون، في هذه الحالة، سَفَرٌ وسموّ إلى «الأعلى» ووعي لكل الحاجات والعوالم العليا الماورائية وغير المدرَكة والمبهمة وأعالي الذات والضمير والكون. وثمة ما يُعرف بالأبله الذي يأكل ويحيا ويُفارق فيضحك عليه الناس، وثمة ما يسمّى بالبسيط الذي يُقاوم ليتكيّف، وثمة الإنسان العادي الذي يواجه الأقدار بتفاعل فينجح ويفشل، وثمة العبقري الذي ينشد الإبداع والنجاح الأبدي ويبدو غير مفهوم ومختلفاً ومتميزاً وغريباً. وقد يكون الجنون لأسباب سيكولوجية. وثمة جنون كالذي حدث مع «أبي العبد» الذي راح يبحث عن بغلته في الإبريق، وهو جنون فلسطينيّ لا شبيه له في الكون. أما جنون هذه القبيلة، فهو نوع جديد ومبتكر، وقد لا يكون خلّاقاً، لكنه ضروري على ما يبدو.

*　　　*　　　*

لم تكن قبيلة الجنون تعرف ما الذي أورثها كلّ هذا التعب المحرج والمبهظ والممضّ!

حيث تأكد أن كل أفراد هذه القبيلة يصابون بنوبة جنون تستمر خمس دقائق مرة واحدة في حياة كل أفرادها، وبات الأمر أشبه بفكاهة مُرّة لا يدري المرء أمام انفجارها أيضحك أم يبكي.

والملاحظ أن جميع أفراد هذه القبيلة توارثوا اللوثة عبر تزاوجهم، ما جعلهم ينكفئون على ذواتهم، ويترددون في مصاهرة القبائل الأخرى، التي لم تعد تخفي رهبتها من التزاوج معهم.

وحتى اللحظة، لم تفلح الرُقى والدعوات والتعاويذ والأدوية والنحيب والرجاء من السماء في أن تَنْبَتّ هذه اللطخة المحرجة وتغادر دماءهم دون رجوع. ولعل قبيلة الجنون قد تعايشت مع هذه السمة الناتئة، ووضعت الضوابط الممكنة للحد من اندلاع لحظة الجنون والسيطرة عليها إلى أولئك الأفراد الذين لم يتخلّصوا من الحالة، ولم تمرّ سحابتها على عقولهم بعد. والغريب أن الحالة هذه، والتي هي خمس دقائق متواصلة من انفلات العقل والجنون الكامل، قد تصيب أحدهم لحظة ولادته، أو وهو يمشي، أو نائم، أو يعمل، أو يأكل، أو يمارس الحب، أو يحرث أرضه، أو يركب فرسه، أو يُصلّي... إلـــــــــــخ.

وكم كانت مشاهد أولئك الذين جاءتهم الحالة على مرأى من الناس مضحكة ومفارقة وغرائبية. فالشيخ الذي فاجأته الحالة وهو يقف خطيباً يوم الجمعة قد انقلب على الناس، فراح يشتمهم ويدعو عليهم ويُنْكر أعمالهم المشينة وتستّرهم بعادة الصلاة، حتى وصل به الأمر إلى النزول عن المنبر والخروج من الجامع، ولم يجد المُصلّون مَنْ يُتمّم صلاتهم ظهر ذلك اليوم.

أما الحلاّق الذي نطحته لحظات الجنون، فقد راح يشطّب رأس زبونه بالموس، وبصق على مَنْ يجلسون في صالونه، متّهماً إيّاهم بالقذارة والنفاق، وكادت تحدث مذبحة، لولا ستر الله.

أما الشاب الذي كان يجلس على المقهى، ودبّت حالة الجنون في أوصاله، فقد راح يصرخ كالذئب المجروح، ويلقي أقذع الأوصاف على المارّة في الشارع، حتى إنه خلع كل ملابسه، وأخرج ما له، على مرأى من النساء اللواتي كنَّ يسرْن الهويدا متبرّجات في الطريق. وربما لن ينسى الناس تلك المرأة التي قلبت كل عربات السوق، وطعنت بائع الخضار الذي راحت تتهمه باقتراف اللواط مع صغير يتيم، حينما باغتته مساء أحد الأيام!

ولعل ذلك الرجل الذي دخل على عروسه، فأغلق الجنون عقله وران عليه، ما زال يتخفّى من أن يراه أحد بعد أن فضّ العروس، فانفجر دمها ونزفت من صدرها ورحمها. ولا نستطيع أن ننسى ذلك الفرّان الذي ألقى بخبز الناس وعجينهم في بيت النار، وكاد يُحرق الحارة.

أما قصة القصص جميعها، فذلك الشرطي الذي فتح النار على المختار والضباط الذين كانوا يتصدرون المجلس، وراح يعرّي علاقاتهم مع متصرّف المدينة الذي ابتاع منهم كل شيء على حساب الناس البسطاء.

*　　*　　*

ويبدو أن قبيلة الجنون قد ضاقت ذرعاً بما تسمعه من تعليقات سخيفة ومتواصلة على ما يحدث لأفرادها، غير أن عزاءهم يكمن في إصابتهم بالجنون مدة خمس دقائق، فقط، طيلة حياة الفرد منهم! أما باقي الناس فيبدو أنهم يصابون بساعات جنون وبشكل دائم، وللتدليل على وجهة نظرهم، ينصحوننا بأن نمعن النظر فيما تفعله قبائل «العقلاء»!

وأدركت شهرزاد الصباح

كان شهريار سيّد الفرار أو المنتصر المهزوم.. الذي أغرق الليالي بأوردة العذروات المفزوعات على الحرير. لكنها المرأة، سرّ الخليقة، وسُرّة الكوكب، وشهوة الشمس، وشامة النار أو الأيل أو الزلزال، هي وحدها مَنْ يستطيع أن يروّض الوحش، أو يبرئ الصدر من السحجات الغائرة، أو مَنْ تصعد بالأرواح إلى أعلى السماوات وتلقيها ثانية في الجحيم أو الماء، ليرى شهريار، من جديد، أرضه وحجمه وموطئ قدمه، وكرسيّه الذي لا يستريح عليه إلا إذا غطّته غلالات شهرزاد وأسرارها الفاتنة التي لا تُصدق!

ما إن فتحوا لها الباب حتى وقعت كتلةً واحدة! رشّوا على وجهها الماء وخضّوه لتصحو.
هيئتها غريبة، ورائحة ملابسها رطبة، كأنها كانت في كهف قديم، وعيناها منتفختان وغائمتان. غير أن المرأة، وما إن ثابت إلى رُشْدها واستعادت وعْيها، حتى انكمشت على نفسها والتجم فمها، وكان واضحاً أنها مذهولة أو متوجسة من أمرٍ ما.
في اليوم التالي انشرحت قليلاً، بعدما أكلت وقبلت أن تدخل الحمّام وتغيّر ملابسها، ونامت الليل متّصلاً حتى منتصف النهار. كانت لغتها غير مألوفة، فهي أقرب إلى الفصحى أو البداوة، لكن صاحبة البيت كانت تعي مقاصدها وتبادلها الكلام.
قالت الغريبة: أنا إحدى وصيفات شهرزاد، وقد سمعتُ حكاياتها ليلةً بليلة، بل أدركتُ قبلها ليالي مَنْ سبقنها من النساء اللواتي قتلهنّ شهريار، وبعد وفاة شهرزاد متُّ، على ما يبدو، أو كنتُ نائمةً ولم أستيقظ إلاّ قبل ثلاث ليال، وخرجتُ من المغارة التي وجدت نفسي ممدّدة فيها، والواقعة شمال هذا البيت، وكان هذا البيت أول بناء صدفته.

فطرقتُ بابَه ودخلْتُ!

استثار كلامُ المرأةِ صاحبةَ البيت، وفتحت شهيتها على خراريف شهرزاد، وقصصها المذهلة الغرائبية المعلقة في عوالم السحر والذهب والجان والشهوات، فأرادت من المرأة الغريبة أن تحكي لها، وتروي عطش فضولها الفاغر فمه وأُذنيه.

مكثت صاحبة البيت شهراً كاملاً تجلس قبالة الغريبة وصيفة شهرزاد، تسمعها وتصيخ لها، ومع اكتمال البدر اختفت الوصيفة، أو لعلّها عادت من حيث جاءت.

* * *

أصبحت القرية تستمع لصاحبة البيت باهتمام واضح، فقد صارت راويةً تملك عناصر الإثارة والجدّة، وتأتي بما لم يأتِ به الحكواتي في ليالي رمضان أو أمسيات الشتاء في الديوان العتيق.

والمدهش في الأمر أن صاحبة البيت كانت تسرد الحكايات بترابطٍ يصعد بالأحداث ويفردها ويعيد تفكيكها، ثم تربط فيما بينها، وتعود بالمستمعين من حيث أخذتهم، وقد امتلأوا بهجةً وجذلاً وسحراً.

وجنّحوا في عوالمَ ما كان لهم أن يعرفوها أو يدركوا حدودها.

وأكدت صاحبةُ البيت، كما فَهِمَتُ، أن شهريار ما كان له أن يقتل زوجاته الأوائل إلاّ عندما اكتشفت زوجته الأولى أنه كان عنيّناً عاجزاً عن إتيان الحرث، أو فضّ العنكبوت، إذ رأت رؤية العين أن أحد حرّاسه كان يفعل به فعل قوم لوط، فرآها من خلل الستائر، فقتلها، ثم كان يتزوج امرأة أخرى، وقبل أن تكشف عجزه كان يبادرها بالذبح إلى أن تزوج شهرزاد.. التي كانت آيةً في الذكاء والحكمة والتروّي، فأدركت بفطنتها وحدسها البعيد أن ثمة معضلة تقضّ مضجع الرجل وتؤثر فيه، وإلاّ فما الذي يدفعه لقتل امرأة كل يوم؟! وعليه، كان لا بدّ لشهرزاد من أن تُشفي الملك شهريار من المحنة المحمومة التي أصابته منذ كان طفلاً ريّاناً مُنعّماً في القصر، فأغرى بعض الحُرّاس المكبوتين الغلاظ. وكان لابُدّ من وقت يمضي حتى يشفى شهريار ويتجاوز دوافع أفعاله، كما أنه لابُدّ من آليّة نافذة قادرة على حمل الرجل على إرجاء نواياه، وإشغاله بما هو أقوى من نوازعه وغرائزه. لهذا كانت الرواية والإثارة والقصص بحبكتها، والتي تعتبر أكثر قوّة من وخزات الجسد ورغباته.

كما كان التأنّي والهدوء أكثر إحاطةً وقدرةً لتفريغ غضب الرجل وإحباطاته. وهكذا، حتى مرّت الشهور إثر بعضها إلى أن استعاد شهريار رجولته وثقته بنفسه. وأثبتت الحكاية أنها أنفذُ من نفث السحر في الروح. والخلاصةُ هي أن شهرزاد هي الحكيمة الطبيبة والراوية الذكيّة التي رفعت سيف الموت عن رقاب النساء، وأزاحت عن ظهر الرجل شهريار رمل التعاسة والانكسار والأذى.

* * *

بعد عام أو أقل كانت عائلات البلدة كلّما وُلدت لهم أنثى يسمّونها شهرزاد، وأطلقوا اسمها على كل ما هو غالٍ وحبيب، غير أننا لم نسمع أحداً دعا ابنه باسم السلطان.. الذي أدركه الشفاء قبل أن يصيح الديك في الليلة العاشرة بعد المئة من قصص السلطانة.. التي حملت وولدت، وسمّت ابنها باسم زوجها.

أظن أن..

(١)

نزل من السرير فرأى جسده العاري في المرآة، فأعجبه حاله! وتوجّه نحو الحمّام، وعاد ليضع منامته على جسده.

كانت المرأة ممددة على حالها، كأنها ترغب في المزيد.

أمعن في وجهها النظر وتفرّس بها، وقال لنفسه: لا أظن أنّ هذه المرأة هي التي كنت معها!

(٢)

لم يتوقع أن يسمع هذا الحوار الصاخب بين الابن وأبيه!

كان من الممكن أن يحتشم الولدُ قليلاً ويخفض للشيخ الذي ربّاه جناح الذّل من الرحمة، غير أن الولد تأفّف وصرخ وعلا صوته، فقلت في نفسي: أظن أنه ابن حرام!

(٣)

عندما وجد عَمّي الجروَ الوليد شبه مَيت، حَملهُ وأسقاه من حليب غنماته. كانت هيئة الجرو تدلل على أنه ابن ذئب وليس كلباً أليفاً. وكبر الجرو واحمرّت عَيناه وسال فَمه بخيط لزج. ولمّا رأيته باسطاً ذراعيه يلهثُ تحت شجرة التوت وينظر إلى عمّي النائم، حذّرته من انقضاض هذا المخلوق الذي ينظر إليه بشراسة بائنة. فرك عمّي عينيه، وقبل أن ينهض، هاجمني العاوي وعضّ ساقي، فسارع عمّي وبادره بالعصا على ظهره، وقال لي: أظن يا ابن أخي أنه سمع ما تقول!

(٤)

كان معروفاً بأنه ولدٌ مُختلّ، أو مبروك، أو أهبل.. لا يلقي له الناسُ بالاً غير أنهم يبعثون به إلى بيوتهم ليقضي بعضَ حاجاتهم، فهو حمّال ونقّال ومنظّف وغاسل وبانٍ وشاطف، ويؤدي عمله بإتقان مشهود، مقابل صحن طبيخ، أو «خَلَقة» قديمة أو قطعة نقود. ويظل الأهبلُ دائمَ الابتهاج والانشراح، لا يشتكي، ولا يرفض طلباً لأحد! بعد بضعة أعوام، اشتكى الكثير من الآباء من أن أبناءهم الصغار يعانون من اختلالات عقلية! وأظن أن الأهبل بريء مما يظنون!

(٥)

كان مُتنطعاً يأخذ بالأمر الصعب والمُكلف والجُهْد. ويبدو متزمّتاً حنبلياً، يشوّه ما لا يعرفهُ، ويخالف مَنْ يجهله، ملولاً كسولاً لا يرغب في المحاورة، وإنْ جادل فيكتفي بتكرار مقولاته الجاهزة.

لا يُراجع قول الآخرين ولا يشكُّ فيما يقول، وغالباً ما يكتفي من الأشياء بظواهرها، ويؤمن بأنه يملك نهاية الأشياء ومفاتيح الجنة والنار.

وعندما واجه السؤال غير المتوقع، انكسر وبانت هشاشته وانقلب انقلاباً دراماتيكياً إلى جهة النقيض. وأظن أنه كان هناك منذ البداية!

(٦)

وقف إمامُ الجامعِ خطيباً في الناس يوم الجمعة، وفتح أوراق الخطبة المطوية، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيّه الكريم، وافتتح خطبته صارخاً في الناس، محذِّراً إيّاهم من تناول طعامهم في أواني الذهب والفضة، واختتم خطبته العصماء بالدعاء لِمَوْلَيَيْنا بيبرس وقطز ولعشيرة المماليك المؤمنين.

ولدى خروجي من المسجد، قال لي صاحبي: كيف للخطيب أن يقول كما قال ونحن في مسغبة وحاجة وجوع؟ فقلت له: أظن أن الخطيب جاء قبل ساعتين من قصر قلاوون!

(٧)

كانوا يعتبرون أنفسهم شعراء ومثقفين، غير أن معظم هؤلاء من أشباه الشعراء وأرباع الحكواتيين وأثلاث الشفويين وأنصاف النمّامين المجروحين. وذهبوا خمستهم إلى العراق بحجة المشاركة بمهرجان المربد- كان هذا قبل الاحتلال الأمريكي بثلاث سنوات- وذهبوا إلى أحد البيوت الموبوءة ببنات الهوى، اللواتي اضطررن لممارسة البغي بسبب الحصار وما أدراك!

وعندما استباحت أمريكا وبريطانيا العراق وتمّ احتلاله، بادر المثقفون بإقامة مهرجان تضامني مع العراق، حضره كل مَنْ يشتغل بالثقافة والفكر والفن والإبداع، ولم يغب سوى أولئك الذين أكلوا لحم الماجدات، وأظن أنهم ذهبوا لمهمة أخرى لم نعرفها بعد.

(٨)

كان ملهوفاً على السفر، فثمة كل ما يحلم به شاب مثله؛ عَمَلٌ ونساء وسهر وحرية ونظافة. طارت به الطائرة، وتاه في شوارع العاصمة على غير هدى، وها هو بعد ثلاث سنوات تائهٌ على رصيف الضاحية المهمّشة لا يرى إلاّ الساقطات المريضات والمثليّين ومصاصي الدماء يجرّون أذيالهم كالشياطين، فلاحقته الكوابيس والأنيميا، ولا تزال ندبة الاعتداء عليه بادية في وجهه. وأخيراً، جمع ثمن تذكرة العودة، وهرع إلى المطار، فاعتقلوه، ونشروا صورته باعتباره واحداً من الإرهابيين الخطرين، أظُن أنهم سيطلقون سراحه قريباً، فهو مريض، وحالته ميئوس منها!

(٩)

لم يكن «بابِش» او بابوش، وهـــذا اسمه الذي عرفناه به، شـــيخاً مثل باقي الشيوخ الأئمـــة والعلمـــاء والدُّعاة، بل كـــان يجادلهم في لبـــس الجُبّة والعمامة ليس أكثر! فهو، أي بابش، لم يتزوج ولم يكشف على امرأة، علـــى رغم بلوغه الخمسين، يجلس في المقهى ويلعب النرد.

ويُماشي الشبان، ويروي النكات، ويضحك بصوته المجلجل، وتراه في صفّ السحجة والدبكة يردّد ما يردّدون بطرب وزهو ونشوة، ويتشاجر إن لزم الأمر، ويحرص على أناقته، ويلمّع حذاءه، كما أنه يمشي في التظاهرات ويجادل في السياسة، ويتحدّث بلغة العامة بعيداً عن التقعُّر والهدوء، وأحياناً سمعناه يسبّ بألفاظ خشنة مُقذعة، وكثيراً ما دعاه الشيوخ وكبار السنّ لأن يخلع جبّته وعمامته، لأنَّ مسلكه وتصرفاته لا ينسجمان مع ما يتطلبه زيُّ الشيوخ الأزهريين، ويكررون جملتهم المعهودة: اثقل يا بابش! لكن بابش يفحمهم بِعِلْمِه وسِعة ثقافته ودرايته بشؤون الدين والدنيا، فيلومونه على عدم التزامه واحتشامه. وعندما يطلب منهم توضيح مقصدهم، وما هي الأفعال التي يقوم بها وتعتبر ضد الشريعة، لا يجدون سوى تلك الخفّة والعاديّة التي يحيا بها وتماهيه مع عامة الناس، وهذا لا يليق بالشيوخ، فيضحك بابش، ويظلّ كما عرفناه! وأظنّ أنه يحبّ الشيوخ جداً.. جداً.

(١٠)

لم تذبل الوردة في بدلة أبو فيروز، حتى قالوا إنه يضع ماءً في فتحة جيب هذه البدلة المكرمشة اليتيمة التي يلبسها مع ربطة عنق مزركشة مُضحكة على قميص مهترئ مليء بطُبع البندورة والحروق. وأبو فيروز ذو النظّارة السميكة العتيقة المكسورة من طرفها يحلق ذقنه، ويترك في مناطق مبعثرة الكثير من الشّعر الذي لم يصله موس الحلاقة. ويجلس أمام المقهى واضعاً ساقاً على ساق، وتفحّ منه رائحة قوية وثقيلة.

وعندما يسألونه عن هذا العطر النافذ، يعدل من جلسته ويدّعي أنه يصنعه في بيته، ويستخرجه من زهور وأعشاب وورودٍ يلتقطها بنفسه من الوَعَر والحقول. ويلاحظ أبو فيروز أن مستمعيه لا يصدّقونه، ولا يؤمنون بقدرته على تصنيع هذا العِطر أو غيره. وفي اليوم التالي، يُحضر لهم أبو فيروز عبوات صغيرة مليئة بالعطور ويوزّعها عليهم، فيفتحون هذه العبوات الصغيرة، ويشمّونها بعمق، ويؤكّدون له أنه عطّار بالفِعل.

وأظن أن أبا فيروز يذهب إلى المدينة ويشتري العطور، ويقوم بوضعها في عبوات فارغة.

(١١)

أبو صملة رجل الإصلاح المُفوّه الذرب، يدفع من جيبه ويقيم الولائم حتى يصلح بين المتخاصمين. ويحب الوجاهة، ويمُنّ بما يفعل.

انشغلت البلدة بما قام به أبو صملة! فقد وجده الفرّان قبل أذان الفجر يخرج من بيت البرمكية التي تصفها نساء بلدتنا بالنوريّة الوذحَة، ويقلن إن عينها صلبة وتندب فيها الرصاصة.

حاول أبو صملة أن يبرر فعلته بأن البرمكية ندهت عليه في الليل ليأخذها إلى الوحدة الصحية، فهو جارها الأقرب. وبالفعل، صدّقه الناس لأن البرمكية قد ذهبت، فور سماعها ذلك الحوار بين أبي صملة والفرّان، إلى الوحدة الصحية، وارتمت أمام التمرجي وادّعت المرض، وأظن أن الممرّض قد صادق على مرض البرمكية، وأعطاها شهادة بذلك وهو في حالة لهاثٍ واضح!

(١٢)

مَنْ يصدق أن الجاعور سينتهي إلى هذه الحال! لا حول ولا قوّة إلاّ بالله!

يأتي أبناء الجاعور وإخوته يأخذونه رغماً عنه، وهم في غاية الاشمئزاز والتقزز والخجل. فمنذ فترة والجاعور فقدَ قدرته على التحكم بذاته، فتراه سائباً حافياً لا ينطق ولا يسمع، وقد تغوّط في سرواله، وفعلها على نفسه، فيدوّي عليه الذباب، ويهرب الناس عنه.

أظن أن الجاعور لا يذكر أيام سطوته وغلظته وتحكمه في رقاب العِباد، لا بأس! لكنه ينبغي أن يذكر كيف منع المؤذّنَ مِنْ رَفع أذان الفجر، فلقد كان يزعجه!

(١٣)

الجميع في البلد يخافون الجليقة أبو عريبد، والبعض يهشُّ في وجهه نفاقاً، فهو ضابط التحقيق في المركز ومعروفٌ بشراسته ونزقه، فما إن يتم القبض على مجموعة من الشبان حتى يأتي الجليقة بسوطه العريبد ويسلخ به جلودهم دون رحمة، ثم يقبض على محاشمهم حتى يطقّ الشرار من عيونهم وتنفقئ أكياس رجولتهم. ولم يجرؤ أحدٌ من عشيرة العريبد أن يحول بين الجليقة وشباب البلد الذين بات أهلهم يخافون على مستقبلهم.

والغريب أن زوجة الجليقة تحكمه بالبابوج وتمسح به الأرض، ويخاف من زعيقها وشرشحتها له أمام الحيّ بأكمله، فيحار الناس ولا يعرفون كيف لهذا الجبّار أن يخضع بكل هذا الانكسار أمام زوجته! أظن أن الجليقة، وعندما يتذكر صراخ الشباب وهو يخنق محاشمهم، تَذبُل رجولته، ويشعر كأنّ أحداً قبض على فحولته وقتلها، فتحس زوجته بعجزه، فتنهره، وتجرّس عليه الدنيا وتبهدله.

(١٤)

مرجان أبو الكلبات أصبح ضابط شرطة! زغردي يا فريدة، وارقصي يا مجيدة، ورشّي الرُّزّ والسُكّر يا سعيدة، وادحجي في حلقات الفرح يا وديدة، وأشْعِلوا أضواء المدينة التي صار فيها ابنُ قريتنا أبو الكلبات ضابطاً يحلّ ويربط، ويأمر ويشخط، ويحمل ويعبُط، وينزل ويشبُط، ويضحك ويخبُط، ويقذف ويصرُط... وأكثري من صحون الهيطلية يا زكيّة، فقد وضع ابنك مرجان النجومَ على كتفيه وتزيّا بالأزرق المهيب! وما عليكَ إلاّ أنْ تلبس دمايتك المكويّة، وتشدّ زنّار الحرير على وسطك،

وتضع العقال المرعز على رأسك المرفوع لدى دخولك الديوان يا أبا مرجان!

ويا فرحة ما كملت! فقد نقلوا مرجان إلى بلدة نائية حدودية، فسبقه إليها ذكرُهُ الصارم، وخاف أعضاء العصابات ومهربو المخدرات من الضابط الجديد الذي يقال إنه شديد ولا يرحم، وسيضربهم بيدٍ من حديد.

وصار أبو الكلبات يزور قريته مُحاطاً بحرسه، فيستقبله المختار والأعيان وشيخ الجامع ومدير المدرسة، ويسهرون في بيته الجديد الأفخم في القرية حتى يأذن لهم بالانصراف، بعد أن كادوا يشترون له كل أراضي القرية، وأصبح أبو الكلبات أبا نعيم، وتقاطرت القرية على مصاهرته، وتزوجت أخواته العانسات، وحجّ أبوه كلّما كان هناك موسم للحجيج، وصار يُدعى الحاج أبو مرجان، ونسي الجميع فعلة مرجان مع الكلبة التي سحبته خلفها ذات صيف! وأظنّ أن مرجان مُقبلٌ على مصيبة، فقد أخذ منه الإدمان كل مأخذ، فبدل أن يبيع الكوكايين والحشيش الذي كان يصادره، أصبح لاستخدامه الشخصي، وصار أكثر شراسة في ملاحقة تجّار الصنف القاتل.

ولا أظنّ أن طلاق اثنتين من شقيقاته، أو عصيان إخوته على ملكية الأراضي التي سجلها باسمهم، له علاقة بانكشاف أمره!

(١٥)

بادل الشوق بالجنّة، وناره الباردة لن تشتعل إلى أبد الدهر، فهو على ضفاف الفردوس الأعلى، يرى ويسمع، ويتمنّى أن يتمكن مَنْ على الأرض من إدراك ما أعدّه الله الكريم للشهداء. ولعل حسرته الوحيدة هي استحالة استقدام أهله إلى هذه النعمة الفارهة، وذلك الحوض الزاخر بالضوء والسَّنا وطِيب الرسول الأجمل! ولعل حسرته الثانية والأخيرة هي فراق بيته ووطنه وأولئك المصلوبين على سياج الذل والقهر، والانتظار الساذج على عمقه وجسارته.

*　　　*　　　*

ثمة لغة ضائعة لم يخترعها الإنسان بعد، وربما يستطيع البشر، يوماً ما، أن يجترحوها حتى يستطيعوا وصف استشهاد هذا الشاب الذي شلخته القذيفة فضيّعت ملامح وجهه وصدره.

وصار أقرب إلى مِزْقة مهلهلة، لكن صراخ أمه وامرأته وأبنائه الصغار هو ما أوقف شَعر رؤوسنا، وأصابتنا قشعريرة حشدت نبض صدورنا، وتمزّعت أكبادنا، وفقدْنا التوازن حتى كاد يُغمى علينا، إنه أمر لا يحتمله مخلوق من لحم ودم! وربما بكى الحديد، وتفتت الخشب وذاب الحجر. صراخ حاد، مذبوح، وحشي، غير مُصدِّق، مفزوع كأنه ساطور يقطع الرِّقاب ويجتثها من شروشها! مات وترك وراءه أمّه وزوجه وأربع قطاطيم لحم حمراء، وصراخاً جعل الظهيرة داكنة وكئيبة، والشجر منكّس الفروع. مات، فَصَلّوا عليه، ولفّوه بالعَلم، وأدخلوه إلى بيته لوداعه، فانفجرنا وجُحْنا واختنقنا بتلك الصرخات المبحوحة المثلومة الطاغية. ... وفجأة تحرّك الشهيد، وشهق، ثم هَمَد! أظن أنه كاد يعتذر عن موته.. لولا أن رأى موقعه في الجنّة!

(١٦)

البنـــــت الريفية، التي زوّجوها رجلاً عاد من غربته، وجدوا زوجها محروقـــاً على فرشته صبيحـــة ليلـــة الزفاف،

ووجدوها منزوية في الغرفة خائفة مُنهارة!

لا أثر لسبب احتراقه، غير أن كل المواقد التي جلست حولها الفتاة كانت تختزن لهيبها تحت جلدها، وأن جمر كل الطوابين وألسنة كل النيران قد انسربت سخونتها في لحم هذه البنت. وعلى ما يبدو، فإن كل تلك الحرارة قد اجتمعت في هذه الليلة، وخرجت دفعة واحدة. والغريب أن الحالة تكررت للمرة الثالثة، والرجال باتوا يبحثون عن نساء سبق أن تزوجن، فعلى الأقل لن يموتوا حرقاً في الدنيا، فثمة حريق ينتظرهم جميعاً كما قالوا! وأظن أنهم ما زالوا يضحكون!

(١٧)

لقد خلقنا من أجل دور واحد، فإما وجدناه وأديناه، وإما انتهينا دون أن ندركه.

* * *

غادرت بيتها وثوبها ونهدها وشهدها، وراحت إليها. ربما كان التقمص تردداً فيه الكثير من الذهاب والتجوال والبحث عن الأنا والإياب، وربما، أيضاً، كان الانفصام تعدداً فيه الكثير من الخيال والتصوّر.

أما اللاعودة فهي مسألة مركّبة، هي الحنين إلى ذاتٍ ضائعة، وعندما تكتشفها أو تصل إليها لا تعود إلى ما كان سابقاً أو إلى غيرها، لأنها تعتقد أن ما كان سابقاً هو التمثيل والتقمّص والانتحال، أما الذي استقرّت عليه ووصلت إليه وتماهت فيه، فهو الحقيقة.

وأخشى- وربما فات الأوان على تدارك الأمر- أن كثيرين من الناطقين وأولي الأمر قد استقروا على ما وصلوا إليه من مصافحة الذي فتح صدورهم ببلطته.. ودخل.

والأكثر مرارةً أنهم وصلوا إلى هذه الحالة دون أن يتركوا التمثيل، وضيّعوا الحقيقة!

*   *   *

تَزيَّتْ كما أراد المُخرج، وتأكدت من الماكياج المطلوب، وتمتمت بالجُمل التي ستقولها للمرة الأخيرة بعد البروفة الثانية، وهيّأت نفسها، وصرخ المُخرج: سُكوت.. كلاكيت.. آكشن!

ودارت الكاميرات، وساد الصمت، وراحت تؤدي دورها في آخر لقطة في هذا الفيلم، وانتهى المشهد، وزعق المُخرج بفرح: ستُوب.. برافو، وصفقوا لها!

غير أنها ظلتْ مُقطّبة وتبكي، اعتقدوا أنها اندمجت في الدور وكان تقمّصها الشخصية عميقاً، فتركوها قليلاً حتى تثوب إلى حالها، وتخرج من الشخصية التي أدّتها بِقدُرة عالية، إلاّ أنها ظلت تبكي، وتتحدث بكيفيّةٍ تؤكد انغماسها في الدّوْر، فأوصلوها إلى بيتها عسى أن ترتاح قليلاً، وتنفكّ تدريجياً عن تلك الشخصية الحزينة.

وفي اليوم التالي اتصل بها زملاؤها الممثلون، واتصل المُخَرج والمُنتج ومدير التصوير والماكيير، وكم كانت صدمتُهم عندما جاء صوتها بالأسى واللوعة والحزن اليابس الغولي العتيق. لم تخرج من دورها بَعْد، قالوا.

ومرت الأسابيع والشهور، وعبرت سنة إثر أخرى، والممثلةُ ما زالت في ثياب دورها تبكي وتملأ المحيط فجيعةً وصراخاً.

وأظنّ أن هذا كان مشهدها الأثير.

السيرة الذاتية

- المتوكل طه ، من مواليد مدينة قلقيلية - فلسطين ، العام ١٩٥٨،
(دكتوراة في الآداب) .

- اعتقلته سلطات الاحتلال الإسرائيلي غير مرّة.

- انتخب رئيساً لاتحاد الكتّاب الفلسطينيين من ١٩٨٧ - ١٩٩٥.

- انتخب رئيساً للهيئة العامة لمجلس التعليم العالي الفلسطيني من ١٩٩٢ - ١٩٩٤.

- شغل منصب وكيل وزارة الإعلام الفلسطينية من ١٩٩٤ - ١٩٩٨ .

- أسّس «بيت الشعر» في فلسطين العام ١٩٩٨، مع عدد من المبدعين الفلسطينيين .

- انتخب أميناً عاماً للاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين العام ٢٠٠٥ .

- رئيس منظمة «شعراء بلا حدود» في فلسطين .

- يشغل منصب وكيل وزارة الإعلام ٢٠٠٦.

- شارك في مئات المؤتمرات والمهرجانات، ونشر الكثير من أعماله في الداخل والخارج، وترجمت عدد من أعماله إلى عدّة لغات.

صدر له :

*** في الشعر**

- مواسم الموت والحياة .
- زمن الصعود .
- فضاء الأغنيات .
- رغوة السؤال .
- ريح النار المقبلة .
- أو كما قال (مختارات) .
- قبور الماء.
- حليب أسود (عن هارون الرشيد والبرامكة).
- نقوش على جدارية محمود درويش .

- الخروج إلى الحمراء (عن أبي عبد الله الصغير وتسليم غرناطة) .
* (وقد صدرت الأعمال الشعرية المذكورة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت العام ٢٠٠٣).
- الرمح على حاله - مركز اوغاريت للنشر والترجمة - ٢٠٠٤.
- أحلام ابن النبي - صدر عن مكتب المؤسسات الوطنية - كانون ثاني ٢٠٠٦ .
- «قال الفتى لبنان»، صدر عن دارالرعاة-رام الله ٢٠٠٧

*** وفي الدراسات صدر له:**

- بعد عقدين .. وجيل (الثقافة الوطنية الفلسطينية في الأراضي المحتلة بعد عشرين عاماً من الاحتلال)، بالاشتراك.
- دراسات في الأدب واللغة (الإنسان، الشعر، المسرح، اللغة) .
- الثقافة والانتفاضة (بعد ألف يوم من الانتفاضة، أثر الانتفاضة في الثقافة وأثر الثقافة في الانتفاضة)، بالاشتراك.
- إبراهيم طوقان (دراسة في شعره).
- الكنوز (ما لم يعرف عن إبراهيم طوقان)، وصدرت الطبعة الثالثة منه بعنوان «من أوراق الشاعر».
- هذا ما لزم، رسائل إبراهيم طوقان إلى فدوى طوقان.
- دراسة في قصيدة «الثلاثاء الحمراء»، البحث عن شاعر آخر.
* (وقد صدرت الكتب الأربعة الأخيرة من هذه الدراسات في مجلد واحد بعنوان «حدائق إبراهيم طوقان» عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت العام ٢٠٠٤).
- قراءة المحذوف (قصائد لم تنشرها فدوى طوقان) العام ٢٠٠٤.
- مقدمات حول الشعر الفلسطيني الحديث والثقافة الوطنية
- صدر عن دار البيرق العربي برام الله - ٢٠٠٤.

- صورة الآخر في الشعر الفلسطيني - صدر عن مركز الدراسات الاستراتيجية»، رام الله - ٢٠٠٥.

- وهم الوصول - صدر عن المركز الفلسطيني للدراسات والنشر والإعلام، رام الله - ٢٠٠٧.

*** وفي النصوص (الأعمال النثرية) صدر له:**

- رمل الأفعى (سيرة كتسيعوت، معتقل أنصار ٣).
- عباءة الورد (نصوص الانتفاضة والشهداء) .
- طهارة الصمت (عن الكتابة وهموم الثقافة) .
- الانتفاضة، مرايا الدم والزلزال - (شهادة - عامان على انتفاضة الأقصى).

* (وقد صدرت الأعمال النثرية المذكورة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت العام ٢٠٠٣) .

- عرش الليمون - قلقيلية في أدب المتوكل طه - صدر عن دار الماجد برام الله العام ٢٠٠٤.
- سَرديّات الجُنون - رام الله ٢٠٠٨
- وقد تناولت العديد من الأبحاث والدراسات الأكاديمية أشعار وكتابات المتوكل طه في غير دراسة ومؤتمر.

Email: mutawakel_taha@yahoo.com
Website: www.a-taha.com